دُرُوسٌ مِن
القُرآنِ الكَرِيم

لفضيلة الشيخ

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

دروس من القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

ح دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح فوزان بن عبد الله

دروس من القرآن الكريم ـ الرياض.

٢٢٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم.

ردمك X ـ١٩ـ٨٣٧ـ٩٩٦٠

١ ـ القرآن ـ مباحث عامة أ ـ العنوان.

ديوي ٢٢٩ ٢١/٣٤٦٣

رقم الإيداع: ٢١/٣٤٦٣

ردمك: X ـ١٩ـ٨٣٧ـ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض ـ ص ب ٤٢٥٠٧ ـ الرمز البريدي ١١٥٥١

هاتف ٤٩١٥١٥٤ ـ ٤٩٣٣٣١٨ ـ فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن، هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، الذي كان خُلقه القرآن، وعلى آله وأصحابه أهل النُّهى والعرفان، أما بعد:

فهذه دروس من القرآن في مواضيع مختلفة، من العقائد والعبادات والمعاملات، كنت قد ألقيتها في أحد المساجد، ثم رأيت طباعتها ونشرها، رجاء أن يكون فيه نفع ولي فيها أجر ـ إن شاء الله ـ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

١٥/٦/١٤٢١هـ



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الدَّرس الأول
التَّوحيدُ في القُرآنِ الكَريمِ

١ ـ أَهميةُ التَّوحيدِ وعَاقبةُ الإِعْراضِ عنه:

قد يَقولُ قائلٌ ـ وقد قيلَ هذا ـ ما بالُكم دائماً تهتمُّونَ بالتَّوحيدِ وتكثِرونَ الكلامَ فيه؟! ولا تتناوَلون قضَايا المُسلِمينَ في الوقتِ الحاضر، الذين يُقَتَّلون ويُشَّردونَ في الأَرض، وتُلاحِقُهم دولُ الكفر في كلِّ مكانٍ.

فنقولُ وبالله التوفيقُ:

التوحيدُ هو الأَصلُ الذي بُنِيتْ عليه المِلَّةُ الحنيفيةُ؛ فالاهتمامُ به اهتمامٌ بالأَصل، وإذا تدبَّرنا القرآن الكريمَ وجدْنا أنّه بيَّن التَّوحيد تبياناً كَامِلاً، حتى إنه لا تخلو سورةٌ من سُور القرآنِ إلاَّ وفيها تَناولٌ للتوحيدِ، وبيانٌ له ونهيٌ عن ضِدِّه. وقد قرَّر الإِمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله أنَّ القرآنَ كلَّه في التَّوحيدِ؛ لأَنَّه إما إِخبارٌ عن الله وأَسمائه وصفاتِه، وهذا هو التوحيدُ العلميُّ الذي هو توحيدُ الربوبية. وإِما أَمرٌ بعبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له ونهيٌ

عن الشركِ، وهذا هو التوحيدُ العمليُّ الطلبيُّ، وهو توحيد الألوهيةِ. وإما أَمرٌ بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه ﷺ ونهيٌ عن معصيةِ اللهِ ومعصيةِ رسوله ﷺ، وهذا من حقوق التوحيدِ ومكمِّلاته. وإما إِخبارٌ عمَّا أَعدَّ اللهُ للموحِّدين من النَّعيمِ والفوزِ والنَّجاةِ والنصر في الدُّنيا والآخرةِ، أَو إِخبارٌ عمَّا حلَّ بالمشرِكين من النَّكال في الدُّنيا وما أُعِدَّ لهم في الآخرة من العَذابِ الدَّائم والخلودِ المؤبَّد في جهنم، وهذا فيمن حقَّق التوحيدَ، وفيمن أَهملَ التوحيدَ[1].

إِذنْ فالقرآنُ كلُّه يدورُ على التوحيدِ. وأَنتَ إِذا تأَمَّلتَ السورَ المكيةَ تجدْ غالبَها في التوحيد؛ لأن النبيَّ ﷺ مكثَ في مكةَ ثلاثَ عشْرةَ سنةً يدعُو إِلى التوحيدِ وينهى عن الشرك. ما نزلتْ عليه أَغلبُ الفرائِض من وزكاةٍ وصِيامٍ وحجٍّ وغيرِ ذلك من أُمورِ الحلالِ والحرامِ، وأُمورِ المعاملاتِ، ما نزل هذا إلا بعدَ الهجرة في المدينةِ. إِلاَّ الصلاة فقد فرضتْ عليه في مكةَ ليلةَ المعراجِ حين أُسْريَ به ﷺ[2] ولكن كانَ هذا قُبيلَ الهجرة بقليلٍ.

---

(١) انظر: مدارج السالكين «للإمام ابن القيم» [٣/ ٤٦٨] بتصرف.
(٢) كما في حديث الإسراء المتواتر، ومن آحاده الحديث المتفق عليه عن =

ولذلك كانَ غالبُ السورِ المكيةِ التي نزلتْ على النبيِّ ﷺ قبل الهجرة، كلُّها في قضايا التوحيد، مما يدلُّ على أَهميته، وأَنَّ الفرائض لم تنزلْ إلا بعد أَنْ تقرر التوحيد، ورسَخَ في النُّفوسِ، وبانتِ العَقيدةُ الصَّحيحةُ؛ لأنَّ الأَعمال لا تصحُّ إلا بالتوحيد، ولا تؤسَّسُ إلاَّ على التوحيد.

وقد أَوضحَ القرآنُ أَنَّ الرُّسلَ عليهم الصَّلاةُ والسلامُ أَولَ ما يبدأون دعوتَهم بالدَّعوةِ إِلى التَّوحيدِ قبلَ كلِّ شيءٍ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وكل نبيٍّ يقولُ لقومهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٩٥]، هَذا هو شأنُ الرسلِ البُداءةُ بالتوحيد.

وكذلك أتباعُ الرسلِ من الدُّعاة والمصلحين أَولُ ما يهتمُّون بالتوحيد؛ لأنَّ كلَّ دعوةٍ لا تقومُ على التوحيد فإنها دعوةٌ

= أنس: البخاري: كتاب التوحيد، باب (٣٧)، رقم (٧٥١٧)، [١٣/ ٥٨٣].
ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٧٤)، رقم(١٦٢).

فاشلةٌ، لا تحقِّقُ أَهدافَها، ولا تكون لها نتيجةٌ. كلُّ دعوةٍ تُهمِّشُ التوحيدَ ولا تهتمُّ به؛ فإنّها تكونُ دعوةً خاسرةً في نتائجها. وهذا شيء مشاهَدٌ ومعروفٌ.

وكلُّ دعوةٍ تركِّزُ على التوحيدِ؛ فإنّها تنجحُ بإذن الله وتثمِرُ وتفيدُ المجتمعَ، كما هو معروفٌ من قضايا التاريخ.

ونحنُ لا نُهملُ قَضايا المسلمينَ بل نهتمُّ بها، ونناصِرُهم ونحاوِلُ كفّ الأَذى عنهم بكلِّ وسيلة، وليسَ من السهل علينا أن المسلمينَ يقتَّلون ويشردون. ولكن ليسَ الاهتمام بقضَايا المسلمين أَنَّنا نبكي ونَتباكَى، ونَملأُ الدُّنيا بالكَلام والكِتابة، والصِّياح والعويل؛ فإِن هذا لا يُجدي شَيئاً.

لكن العلاجَ الصحيحَ لقضايا المسلمين، أَنْ نبحث أولاً عن الأَسباب التي أوجبتْ هذه العقوباتِ التي حلَّت بالمسلمين، وسلَّطتْ عليهم عدوَّهم.

ما السببُ في تسليطِ الأَعداءِ على المسلمين؟

حينما ننظرُ في العالم الإِسْلامي، لا نجدُ عند أكثر المنتسبين إلى الإِسلام تمسُّكاً بالإِسلام، إلا من رحم الله، إنما

هم مسلمونَ بالاسم؛ فالعَقيدةُ عند أكثرهم ضائعة: يعبدونَ غيرَ الله، يتعلَّقون بالأولياء والصَّالحين، والقبورِ والأَضرحةِ، ولا يُقيمونَ الصَّلاة، ولا يُؤتُون الزكاةَ، ولا يَصومُون، ولا يقومون بما أَوجب اللهُ عليهم ومن ذلك إعداد القوة لجهاد الكفار!! هذا حال كثيرٍ من المنتسبين إلى الإسلام، ضيَّعوا دينَهم فأَضاعهم اللهُ عز وجل.

وأَهمُّ الأَسباب التي أوقعت بهم هذه العقوبات هو إِهمالُهم للتوحيد، ووقوعُهم في الشرك الأَكبرِ، ولا يَتناهون عنه ولا يُنكِرونه! مَنْ لا يفعلُه منهم فإِنّه لا يُنكِره؛ بل لا يعدُّه شركاً. كما يأتي بيانُه إن شاء اللهُ. فهذه أَهم الأَسباب التي أَحلَّت بالمسلمينَ هذه العقوبات.

ولو أَنَّهم تمسَّكوا بدينهم، وأَقاموا توحيدَهم وعقيدتَهم على الكتاب والسنة، واعتصَموا بحبل اللهِ جميعاً ولم يتفرَّقوا، لما حلَّ بهم ما حل؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١]، فبَيَّن أنه لا يحصُلُ النصرُ للمسلمينَ

إلا بهذه الرَّكائز التي ذكرها اللهُ سبحانه وتعالى وهي: إقامةُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

وأين هذه الأمورُ في واقعِ المسلمينَ اليومَ؟! أين الصَّلاةُ عند كثيرٍ من المسلمين؟! بل أين العقيدةُ الصَّحيحةُ عند كثيرٍ ممَّنْ يدَّعون الإسلامَ؟!

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، لكن أين الشرط لهذا الوعد؟ ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا...﴾ [النور: ٥٥]، فبيَّن أن هذا الاستخلافَ وهذا التمكينَ لا يتحقَّق إلا بتحقُّق شرطِه الذي ذكره وهو عبادتُه وحدَه لا شريكَ له، وهذا هو التوحيدُ، فلا تحصل هذه الوعودُ الكريمةُ إلا لمن حقَّق التوحيدَ بعبادة اللهِ وحدَه لا شريكَ له، وعبادةُ اللهِ تدخل فيها الصَّلاةُ والصِّيامُ والزكاة والحجُّ، وجميعُ الطاعاتِ.

ولم يقلْ سبحانَه: يعبدونني فقط بل أَعقب ذلك بقولِه: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾؛ لأن العبادةَ لا تنفعُ مع وجودِ الشِّركِ،

بل لابدَّ من اجتنابِ الشرك أيًّا كانَ نوعُه، وأيًّا كان شكلُه، وأيًّا كان اسمُه. وهو: «صرف شيءٍ من العبادة لغير الله عز وجل».

هذا هو سببُ النجاةِ والسَّلامةِ والنَّصرِ والتمكينِ في الأَرضِ، صلاحُ العقيدةِ وصلاحُ العملِ. وبدون ذلك فإنَّ العُقوباتِ والنَّكباتِ، والمَثُلات قد تحلُّ بمن أخلَّ بشيء مما ذكره الله من القيام بهذا الشرط، وهذه النكبات، وهذا التَّسَلُّطُ من الأعداء سببه إخلال المسلمين بهذا الشرط وتفريطُهم في عقيدتِهم ودينِهم، واكتفاؤُهم بالتسمِّي بالإسلام فقط.

٢ ـ معنى التوحيد:

إذَنْ ما التوحيدُ الذي هذه أَهميَّتُه، وهذه مكانتُه؟

التوحيدُ: مأخوذ مِن وحَّدَ الشيء إذا جعلَه واحداً، والواحدُ ضدُّ الاثنينِ والثَّلاثةِ فأكثر، فحاصله أنه ضد الكثرة فالشيء الواحد هو الشيءُ المستقلُّ المتوحِّدُ الذي لا يشارِكه غيرُه.

وأما في الشرع فالتوحيدُ هو: «إفرادُ الله بالعبادةِ» بمعنى: أَنْ تُجْعلَ العبادةُ كلُّها لله عز وجل ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾

[الأنفال: ٣٩]؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤].

هذا هو التوحيدُ في الشَّرعِ: إفرادُ اللهِ بالعبادة وتركُ عِبادةِ ما سواه.

٣ ـ أَنواعُ التَّوحيد:

التوحيدُ: أَنواعٌ ثلاثةٌ مستقرأَةٌ من كتاب اللهِ عز وجل. وليسَ تقسيمُ التَّوحيدِ إلى ثلاثةٍ جاءَ من قَبيلِ الرأي، أَو مِن قَبيل الاصْطِلاح، وإنما هو مستقرأٌ من كتابِ اللهِ عزوجل.

النوعُ الأَولُ: توحيدُ الربوبيةِ وهو: «إفرادُ اللهِ جلَّ وعلا بأَفعاله»، من الخلق والرِّزقِ والإحياءِ والإماتةِ وتدبيرِ الأُمورِ، فيعتقد المرءُ أن اللهَ وحدَه الخالقُ الرازق المدبِّرُ الحيُّ الذي لا يموت.

النَّوعُ الثَّاني: توحيدُ الأُلوهيةِ وهو: «إفرادُ اللهِ جل وعلا بأَفعالِ العباد»، التي يتقربون بها إليه سبحانه وتعالى: كالدُّعاءِ

والخَوفِ والرَّجاءِ والرَّهبةِ والرَّغبةِ والتوكل والاستقامةِ والاستِغاثة والذَّبح والنذرِ، وغيرِ ذلك من أَنواعِ العبادةِ. فيجبُ أَنْ تكون العبادةُ بجميع أَنواعِها لله سبحانَه لا يُصرَفُ منها شيءٌ لغيرِ الله. هذا هو توحيد العبادةِ، أَو توحيد الألوهية، وهو التوحيد العملي، وهو توحيد الطلب والقصد وتوحيد الطاعة.

النَّوعُ الثالثُ: توحيدُ الأَسماءِ والصِّفات، وهو: «الإِيمانُ بما أَثبته اللهُ لنفسِه أَو أَثبته له رسولُه من الأَسماءِ والصِّفاتِ».

هذه أَنواعُ التوحيدِ مستقرأةٌ من كتاب الله عز وجل. فكلُّ آيةٍ في القرآن تتحدَّثُ عن أفعالِ اللهِ من الخلق والرِّزق والإِحياءِ والإِماتة وتدبيرِ الأُمور فهي في توحيد الرُّبوبية، وهذا كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾

[المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

وهكذا كلُّ آيةٍ فيها ذكرُ خَلْقِ السمٰوات والأرض، وخَلْقِ المخلوقاتِ، فإنّ هذا في توحيد الربوبية.

وكلُّ آية فيها ذكرُ العِبادَةِ: بأن تتحدث عن الأَمرِ بعبادةِ اللهِ والنهي عن الشرك، فإن هذا في توحيدِ الأُلوهيةِ.

وكلُّ آيةٍ تتحدث عن أَسماءِ الله وصفاتِه، فإن هذا في توحيد الأَسماءِ والصِّفاتِ.

فكلُّ هذه الأنواعِ في كتابِ اللهِ، ولذلك قال العُلماء: التَّوحيدُ ثَلاثةُ أَقسامٍ: توحيدُ الأُلوهِيةِ، وتوحيدُ الرُّبوبيةِ، وتوحيدُ الأَسماءِ والصِّفاتِ.

ما جاءوا بهَذا من عندِهم، وإِنّما استَقرؤوهُ من كِتاب اللهِ سُبحانَه وتَعالى، وسَيأتي لهذا زيادة بيان إن شاءَ الله[1].

---

(١) انظر ص (٢٠) من هذا الكتاب.

٤ ـ التَّوحيدُ عند المتكلِّمين :

هُناك مَن يقولُ: التوحيدُ نوعٌ واحدٌ فقط، وهو توحيدُ الرُّبوبيةِ وهو: الاعترافُ بأن اللهَ هو الخالقُ الرازق المحيي المميتُ، إلى آخر ما جاء من أفعالِ الله وصفاتِه جلَّ وعلا. وعلى هذا جميعُ علماءِ الكَلامِ والنُّظَّار الذين بنوا عقيدتَهم على علم الكلام. وعَقائدُهم موجودةٌ، وإذا قرأت في كتبِهم لا تجدُ فيها إلا إثباتَ توحيدِ الرُّبوبية، فمن اعترفَ به عندَهم فهو الموحِّدُ، وليس عندَهم توحيدُ الألوهية ولا توحيد الأَسْماء والصِّفاتِ، ولذلك لا يَعدُّون عبادةَ القُبورِ ودعاءَ الأَموات شركاً، وإنّما يقول أماثلهم: هذا توجُّهٌ لغير الله، وهو خطأ. ولا يقولونَ: هذا شرك.

وبعضُهم يقول: إنَّ هؤلاء الذين يدعُون الأَمواتَ، ويستغِيثون بالمقبُورينَ ليسوا بمشرِكين؛ لأنهم لا يعتقدون أَنَّ هؤلاء الأموات أو هذه المعبوداتِ تخلق وترزق وتدبِّرُ مع الله، فماداموا لم يعتقِدوا ذلك فإنّهم ليسُوا مشرِكين، ولا يُعَدُّ عملُهم هذا شركاً. وهم إنَّما اتخذوا هذه الأَشياءَ وسائلَ ووسائطَ بينهم وبين اللهِ شفعاءَ!!

هذه مقالتهم، كما قال المشركون من قبل: ﴿... مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ...﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

ويقولُ علماءُ الكَلامِ: إِنَّ عبادة القبورِ والتعلُّقَ بالأَمواتِ والاستغاثةَ بهم ليس بشركٍ، وإِنّما هي توسُّلٌ، وطلبٌ للشَّفاعةِ، واتخاذُ وسائطَ إِلى الله عز وجل. ولا يكونُ شركاً إِلاَّ إِذا اعتقدوا أَنَّ هذه الأَشياءَ تخلق وترزق وتدبِّرُ مع اللهَ عزوجل!!

هذا يصرِّحُون به في كتبهم وفي كَلامِهم.

والذي يُنكِر من أَهل الكَلامِ على من يقع في هذا الأمر يقولُ: هذا مِن بابِ الخطأ، وهؤلاء جهَّالٌ وقعوا في هذا الجهل لا عن قَصْدٍ؛ بل لجهلهم.

لكنَّ الأَكثرَ لا يُنكِرونَ عليهم؛ بل يقُولون: هذا اتخاذُ وسَائطَ وشُفعاءَ عند اللهِ عزَّ وجل، وليسَ شركاً.

وأَنا لم أَتقوَّلْ على القومِ شيئاً لم يقولُوه؛ بل هذا موجودٌ في كتبهم التي ردُّوا بها على أَهلِ التَّوحيدِ، ودافعوا بها عن أَهلِ

الشرك.

وأما الأَسماءُ والصّفاتُ فإثباتُها عندهم يقتضِي التشبيهَ، فنفوها عن اللهِ عزَّ وجلَّ، وهؤلاء هم: الجهميةُ والمعتزِلةُ والأَشاعرةُ والمَاتُريديةُ، كلُّهم نفوا توحيدَ الأَسماءِ والصَّفاتِ، تنزيهاً للهِ - بزعمهم - عن مُشَابهةِ المخلوقين، فصار التوحيدُ منحصِراً عندهم في توحيدِ الرُّبوبيةِ فقط، وليس عندَهم توحيدُ الأُلوهيةِ ولاتوحيدُ الأَسماءِ والصِّفاتِ.

ويُنكِرونَ على مَن يُقَسِّمِ التوحيدَ إِلى ثلاثةِ أَقسامٍ، حتى إِن كاتباً عصريًّا منهم يقول: تقسيمُ التوحيدِ إِلى ثلاثةِ أَقسامٍ هو من التَّثليثِ! بلغت الوقاحةُ به إِلى أَنْ يشبِّهَه بدينِ النَّصارى. والعياذُ باللهِ.

٥ - الخطأ في تقسيم التَّوحيدِ:

ومن المعاصرين من يقسِّمُ التوحيدَ إِلى أَربعةِ أَقسامٍ، فيقول: التوحيدُ أَربعةُ أَنواعٍ: توحيدُ الرُّبوبية، وتوحيدُ الأُلوهيةِ، وتوحيدُ الأَسماءِ والصِّفاتِ، وتوحيدُ الحَاكميةِ. ويستنِدُ في هذا إِلى أَنَّ التقسيمَ اصطِلاحيٌّ، وليس توقيفيًّا، فلا

مانعَ من الزيادةِ على الثّلاثةِ.

ويُقالُ لهذا: ليسَ التقسيمُ اصطِلاحيًّا، وإنّما يُرجَعُ في التقسيمِ إلى الكتابِ والسُّنة. والسلفُ حينما قسَّموا التوحيدَ إلى ثلاثةِ أَقسامٍ استقرأوهَا من الكتاب والسنةِ.

أَما الحاكميةِ فهي حقٌّ. يجبُ أَنْ يكون التحاكمُ إلى شرعِ اللهِ عز وجل، لكن هذا داخلٌ في توحيدِ العبادةِ لأنه (طاعةُ اللهِ عزَّ وجل)، والسلفُ ما أهملوا توحيدَ الحاكمية حتى يأتي واحدٌ متأخرٌ فيضيفُه، بل هو عندَهم داخِلٌ في تَوحيدِ العبادةِ (توحيدُ الأُلوهية)! لأَنَّ من عبادةِ اللهِ جلَّ وعلا طاعتُه بتحكيمِ شَرْعِهِ، فلا يُجعلُ قِسماً مستقلاًّ. وإلا لزِمَ من ذلك أَن تُجعلَ الصَّلاةُ قِسْماً من أقسام التوحيد، وتُجعلَ الزكاةُ قسماً، والصيامُ قسماً، والحجُّ قسماً، وكلُّ أنواع العبادة أقساماً للتوحيد، ويُجعل التوحيدُ أَقساماً لا نهاية لها! وهذا غلط. بل أَنواعُ العبادةِ كلُّها تندرجُ تحت قسمٍ واحدٍ وهو توحيد الألوهية، فإنه جامع لها مانع من دخول غيرها معها.

ومنهم مَنْ يزيدُ على الأَقسامِ الأَربعةِ قِسْماً خَامِساً

ويُسمِّيه: اتباعَ الرسَّولِ ﷺ. وهذا غلطٌ. فاتباع الرَّسولِ ﷺ حقٌّ ولابدَّ منه، لكن اتباعَ الرسولِ ﷺ من لوازِم التَّوحيدِ، ولذلك لا تصِحُّ شهادةُ: أن لا إِلَه إلاَّ اللهُ، إلا بشهادةِ أَنَّ محمداً رسولُ اللهِ. فَمِن لازمِ الشهادة للهِ بالتوحيد الشهادةُ للرسول ﷺ بالرِّسالة، وهذا من لوازمِ التوحيد وليس قِسْماً مستقلاًّ من أَقسام التوحيد. ومخالف التوحيد يقال له مشرك أو كافر. ومخالف المتابعة يكون مبتدعاً.

هذه أَقوالُ المخالفين لأَهلِ السنة في تقسِيمِ التَّوحيدِ، وهم بين مُفْرِط ومفَرِّط.

المُفرِطُ هو: الذي زاد على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أَقسام.

والمُفرِّطُ هو: الذي اقتصرَ على نوعٍ واحدٍ وأَهمل البقيةَ؛ بل أَهملَ الأهم، الذي هو المطلوب، وهو توحيدُ الأُلوهيةِ.

أَما توحيدُ الرُّبوبيةِ، فجميعُ الأُممِ مقرةٌ به، لم ينكرْهُ إلاَّ شُذَّاذٌ من الخلق، أَنكروه تكبُّراً وعناداً مع اعترافهم به في قَرارةِ أَنفسِهم. فجميعُ الخلق مقرُّون بأَنَّ الله هو الخالِقُ الرازق المحيي المميتُ المدبرُ، لكن ليس هذا هو التوحيدُ المطلوبُ.

٦ ـ التَّوحيدُ الذي طُولِبَ به البشرُ :

التوحيدُ المطلوبُ هو توحيدُ الأُلوهيةِ، ولهذا كان الرسُل كلُّهم يبدأون دعوتهم لأقوامهم بقولهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، يدعون إلى توحيد الألوهية كما أخبر القرآن عنهم، ذلك لأن توحيد الألوهية هو الذي تنكّر له البشر واجتالتهم الشياطين عنه.

وأَما توحيدُ الرُّبوبيةِ فهو شيءٌ حاصل وموجودٌ ومستقرٌ في النُّفوسِ. والاقتصارُ عليه والاكتفاءُ به لا ينجي العبدَ، ولا يدخِلُه في زمرةِ الموحِّدين المؤمنين، ولذلك قاتلَ الرسول ﷺ كفارَ قريشٍ، وهم يقروا بأَنَّ اللهَ هو الخالقُ الرازق المدبِّرُ المحيي المميتُ، قاتلَهم واستحلَّ دماءَهم حتى يقِرُّوا بتوحيد الأُلوهية؛ قال ﷺ: «**أُمِرت أَنَّ أُقاتلَ النَّاسَ حتَّى يقولُوا لا إِلٰه إِلاَّ اللهُ، فإِذا قالُوها عصمُوا مني دماءَهم وأَموالهم إِلاَّ بحقِّها، وحسابُهم على اللهِ**»(١).

فهذا دليل على أَنَّ المطلوبَ الأَعظم من الخلقِ هوتوحيدُ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٦)، ومسلم (رقم ٢١).

الأُلوهية، ولذلك لم يقلْ ﷺ: أُمِرتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يُقِرُّوا بأَنَّ اللهَ هو الخالِقُ الرازقُ المحيي المميتُ؛ لأَنَّهم مقرونَ بهذا. بل قال: «حتَّى يقولُوا لا إِلَه إِلاَّ اللهُ» أَو «يشهدوا أَن لا إِله إِلاَّ الله».

٧ ـ بيانُ أَنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ من القُرآنِ:

سَبَق أَنْ قلنا: إِنّها مستقرأةٌ من القُرآنِ الكَريمِ. والآياتُ التي تؤخَذُ منها أَنواعُ التوحيد الثلاثةُ كثيرةٌ، منها:

سورةُ الفاتحة ـ وهي أَول سورةٍ في المصحفِ ـ فيها أَنواعُ التَّوحيدِ الثَّلاثةُ: فقولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فيه توحيدُ الرُّبوبيةِ؛ لأَنَّ الآية أَثبتتْ ربوبيةَ اللهِ لجميع العالَمين ـ وهم كلُّ ما سِوى اللهِ ـ والربُّ هو المالِكُ المدبِّرُ.

وقولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ فيه توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ؛ لإِثباتِ وصفِ اللهِ في الآيتين بالرَّحمةِ والمُلكِ، وإِثباتِ أَسمائِهِ: الرحمن، الرحيم، المالك، وقولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فيه توحيدُ الأُلوهية؛ لدلالةِ الآية على وجوبِ إِفرادِ اللهِ تعالى بالعِبادةِ والاستِعانةِ.

كذلك سورة الناس ـ وهي آخر سورة في المصحف ـ فيها أَنواعُ التوحيدِ الثَّلاثةُ :

فقولُه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾ هذا توحيدُ الرُّبوبيةِ . ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ ﴾ هذا توحيدُ الأَسماءِ والصِّفات . ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ هذا توحيدُ الأُلوهية .

كذلك أَوَّلُ نداءٍ في المُصحفِ هو في نوعي التوحيدِ، وذلك في قولِه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢ ﴾ [البقرة: ٢١ـ٢٢].

لَمَّا ذكرَ سبحانَه وتعالى أَقسامَ النَّاسِ الثَّلاثةَ (المؤمنين والكافرين والمنافقين) وجه عباده نحوَ الاهتداءِ بهدايةِ القرآنِ، فعقَّب ذلك بقولِه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ وهو نداء عامٌ لكافةِ الخلق لأَمرِهم جميعاً بإِفراد اللهِ بالعبادة وعدمِ إِشراك أَيِّ أَحدٍ معه . وهذا هو توحيد الأُلوهية .

ثم جاء بتوحيد الربوبية دليلاً عليه، فقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ

وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ أليستْ هذه أَفعالُ اللهِ جل وعلا؟ هذا توحيدُ الرُّبوبيةِ، ذكره سبحانَه وتعالى دليلاً على توحيدِ الأُلوهية وبُرهاناً عليه. فكما أَنه يفعلُ هذه الأَشياءَ وحدَه فإِنّه لا يستحقُّ العبادةَ أَحدٌ غيرُه؛ بل هي حقٌّ خالصٌ له سبحانه.

ذكرَ في هذه الآية نَوْعَي التوحيدِ: توحيدُ الأُلوهيةِ؛ لأَنَّه المقصودُ الأَعظمُ، وذكرَ توحيدَ الرُّبوبيةِ دليلاً على الأُلوهيةِ ومستلزماً له، وأَمر بذلك جميعَ النَّاس كما قال في آية أُخرى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] فأَخبر أَنَّ هذين العالمين العظيمين (عالَمِ الجن وعالَمِ الإِنسِ) لم يُخْلَقا إِلا للقيامِ بعبادةِ اللهِ وإِفرادِه بها وتوحيدِه في أُلوهيتِه.

ثم نهىٰ عن الشركِ في آخرِها فقال: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: ﴿أَندَادٗا﴾: أي: شركاء تصرفون لهم شيئاً من العبادة ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أنه لا شريكَ له في رُبوبيتِه يُشاركهِ في هذه الأُمورِ: خلقِ السمواتِ والأَرضِ وإِنزالِ المطر وإِنبات النباتِ. أَنْتم تعلمون أَنه لا أَحد يشارِكُ اللهَ في هذه

الأُمورِ، فكيف تشرِكون معه غيره في العبادة؟!

وقالَ سبحانَه وتعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . .﴾ [البقرة: ١٦٣] هذا في توحيدِ الأُلوهيةِ. والإلـٰهُ معناه: المعبودُ، والأُلوهيةُ: العِبادةُ والحبُّ.

ومعنى الآية: ومعبودُكم بحق معبودٌ واحدٌ، لا إلـٰه إلاَّ هو، أي: لا معبودَ بحقٍّ سواه.

وقولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ هذا داخلٌ في توحيدِ الأَسماءِ والصِّفاتِ؛ إذ فيه إِثباتُ اسمين للهِ، وإِثبات صفةِ الرَّحمةِ.

وقولُه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]، هذا في توحيدِ الرُّبوبيةِ، ذكرَه اللهُ دليلاً وبُرْهاناً على توحيدِ الأُلوهية؛ ولذا أَخبر أَن في ذلك آياتٍ، أَي: دلالاتٍ وبَراهينَ على استِحقاق اللهِ للعبادةِ دونَ غيرِه.

ففي هذه الآيةِ أَقسامُ التوحيدِ الثَّلاثةِ. وهكذا تجدها متجاورة في القرآن الكريم.

٨ ـ الحِكْمةُ من تَقْريرِ القُرآنِ لتَوْحيدِ الرُّبوبيَّة:

والقرآن إنما يذكرُ توحيدَ الرُّبوبية ـ مع أَنَّ الكفارَ مقرُّونَ به ـ من أَجلِ أَنْ يبين دلالته ويقِيمَهُ بُرهاناً على توحيدِ الأُلوهيةِ، فيحتجَّ عليهم بما أَقرُّوا به من بابِ الإِلزام لهم:

كيف تقرُّون للهِ بالرُّبوبيةِ، ولا تقرُّون له بالأُلوهيةِ والعُبودية؟!

كيف تَصْرِفُون العِبادةَ لمن لا يشارِكُ اللهَ في شيءٍ من مخلوقاتِه؟! هذا من التناقض. ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ٤]، ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ... ﴾ [لقمان: ١١]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج: ٧٣].

لو سلَّطَ اللهُ عليهم الذُّبابَ، ما استَطاعوا أَنْ يَنتصِروا لأَنفُسِهِم منه، والذُّبابُ أَضعفُ شيءٍ، فلو سَلَّطَ اللهُ الذُّبابَ والبَعُوْضَ على النَّاسِ ما استَطَاعُوا أَنْ يتخلَّصوا منه، يقتُلُون منه ما يَقتلُون ثم يكثرُ عليهم ويغمرُهم.

وقِيْل: المعنى لو أَنَّ الذَّبابَ أَخذَ شَيئاً مما على الصَّنمِ من الطِّيبِ والزِّيناتِ التي يجعلُونَهاعليه، فإِنَّ الصَّنَم لا يَستطِيعُ أَنْ يستردَّ ما أَخذَه الذُّبابُ منه.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ هو المُشرِكُ، ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ هو الصَّنَمُ، وقيل: الذباب.

إِذا كانَ كذلك فكيفَ تُجعل هذهِ شركاءَ اللهِ الخَالقِ الرَّازقِ المحيي المميتِ القويِّ العزيزِ الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ، سبحانه وتعالى؟! أَين العقولُ؟! وأَين الأَفهامُ؟! نسأل اللهَ العَافيةَ.

٩ ـ التَّوْحيدُ في آيةِ الكُرْسيِّ:

آيةُ الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا

بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه أَعظمُ آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، تشتمِلُ على ربوبية الله وعبادته وعلى أَسماءِ اللهِ وصفاتِهِ، جَمَعَ اللهُ فيها بين النَّفْيِ والإثباتِ: نفيِ النَّقَائِصِ والعُيوبِ عنه، وإثباتِ الكَمالِ له سبحانَه وتعالَى.

وفي أَوَّلها توحيدُ الألوهية: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا هُوَ. ثم ذكرَ توحيدَ الرُّبوبيةِ بقولِه: ﴿ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، وهذا فيه إثباتُ الحَياةِ والقَيُّوْميّةِ للهِ.

وقَولُه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾: هذا نَفْيٌ، نَفَى الله عن نفسِه النقصَ والعَيبَ، من صفات النقص المنفية (النوم والسِّنة).

قوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: هذا إثبات لربوبيته، فهو مالك السماوات والأَرض ومن فيهن.

وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾: هذا نفيٌ، نَفَى أَنْ يشفعَ أَحدٌ عندَه إلا بإذنِه؛ وذلك لكمالِ عظمتِه سبحانَه وتعالى. وأَن أَحداً لا يجرؤ أَنْ يشفعَ عندَه إلا بعدَ إذنه.

قوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾: هذا إثباتٌ، فيه إثباتُ كمال العلمِ لله عزَّ وجل، يعلم كلَّ شيءٍ: الماضِي والحَاضِر والمُستقبلِ، لا يخفَى عليه شيءٌ، علمُه شامِلٌ محيطٌ.

قوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾: هذا نفيٌ، نَفَى عن الخلقِ أَنْ يعلموا شيئاً من علمِ اللهِ، إلاَّ بما أَطلعهم اللهُ عليه، وإلاَّ فإنّهم لا يعلَمُون الغيبَ، لا يعلمُ الغيبَ إلا الله سبحانه.

وقوله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾: الكرسيُّ مخلوقٌ من مَخْلوقاتِ اللهِ، وهو مَخلوقٌ عظيمٌ، السماواتُ والأَرضُ بالنِّسبةِ إليه كسبعةِ دَارَهِمَ أُلقيتْ في فَلاةٍ - وهي الصَّحرَاءُ الوَاسِعةُ - أو في تُرْسٍ - وهو صحنٌ كبيرٌ - ما تكونُ سبعةُ دراهِمَ في فَلاةٍ أَو في تُرْسٍ؟! فكرسيُّ اللهِ جلَّ وعلا أَكبرُ من السَّماواتِ والأَرضِ، وهو غيرُ العرشِ، والعرشُ أَعظمُ من الكرسيِّ.

وما الكرسيُّ في العرش إلا كحلقةِ حديدٍ أُلقيتْ في أرضٍ فلاةٍ.

هذا الكُرْسيُّ، فكيفَ بعَرشِ الرَّحمنِ سبحانَه وتعالَى؟!

إذنْ فالمخلوقاتُ بالنسبةِ لله صغيرة جدًّا وليستْ بشيءٍ.

وإذا كان مخلوقٌ من مَخْلوقاتِ اللهِ ـ وهو الكرسيُّ ـ وَسِعَ السَّماواتِ والأَرضَ وهو دونَ العَرْشِ، فاللهُ جلَّ وعلا أَعظمُ من كلِّ شيءٍ.

وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يشقُّ عليه سبحانَه، ولا يُثقِلُه، ولا يُكرِثُه حفظُ السَّماواتِ والأَرضِ، وحمايَتُهما من الفَسَادِ والتغيُّرِ، وإمسَاكُهُما ﴿... وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ...﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿... رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ...﴾ [الرعد: ٢] ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ...﴾ [فاطر: ٤١] واللهُ سبحانَه ليس محتاجاً إلى السَّماواتِ والأَرضِ، ولا إلى العَرْش، ولا إلى الكرسيِّ، وليسَ محتاجاً إلى المخلوقاتِ، وإنما مخلوقاتُه هي المحتاجَةُ إليه سبحانه وتعالَى.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ...﴾ بذاته وقَدْرِه وقَهْرِه فوقَ عبادِهِ ﴿ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ الجامعُ لصِفاتِ العَظَمَةِ والكِبرياءِ.

فهذه الآيةُ اشتملتْ على أنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ.

١٠ ـ التَّوْحيدُ في سُورةِ الكَافرونَ والإِخْلاصِ:

في القرآن الكريم سورٌ اختصتْ بتوحيدِ الأُلوهيةِ مثلُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، هذه السُّورةُ مخصَّصَةٌ لتوحيدِ الأُلوهيةِ، توحيدِ العِبادةِ.

وسَببُ نُزولِها هو: أَنَّ المُشرِكينَ طَلَبُوا من النبيِّ ﷺ أَنْ يَعْبُدوا ربَّه سَنةً، وهو يعبدُ آلِهتَهم سنةً[1].

فأَنزلَ اللهُ هذهِ السُّورةَ في البَرَاءةِ من عِبادةِ الأَوثانِ وتخصِيصِ اللهِ جلَّ وعَلا بالعِبادةِ.

وقَولُه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾، كرَّرَ هذهِ الجُمَلَ للتأْكيدِ.

وقَولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، هذا من بَابِ البَراءةِ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما.

وتَيْئيسِ المُشرِكينَ من هذا الطَّمعِ .

وفي القرآن أيضاً سورةٌ خاصَّةٌ بتوحيد الربوبية والأسماءِ والصِّفاتِ، هي: سُورةُ الإِخْلاصِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، فيها نفيٌ وفيها إثباتٌ، نفيُ النَّقَائصِ عن اللهِ، وإِثباتُ صِفَاتِ الكمالِ له سُبحانَه وتعالى، كما في آيةِ الكُرسيِّ. وهذه السُّورةُ خَالِصةٌ في صِفَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولهذا جاءَ أَنَّ صَحابِياً كان يُكثِرُ قراءةَ هذهِ السُّورةِ، فسئِلَ عن ذلكَ؟ فقالَ: إِنِّي أُحبُّها؛ لأَنَّها صِفَةُ الرَّحمنِ، فبلغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «**أَخبِروهُ أَنَّ الله تعالى يُحِبُّهُ**»(١).

١١ ـ أَنواعُ التَّوحِيدِ في سُورَةِ الزُّمَرِ:

سُورةُ الزُّمَرِ من أَوَّلِها إِلى آخرِها تدورُ على التَّوحيدِ بِأَنواعِهِ الثَّلاثَةِ: تَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ، وتَوحيدُ الأُلوهِيَّةِ، وتَوحيدُ الأَسْماءِ والصِّفاتِ. وأَنتَ إِذا تأَمَّلْتَ السُّورةَ من أَوَّلِها إِلى آخِرها

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة: البخاري: كتاب التوحيد، باب (١)، رقم (٧٣٧٥)، [١٣/ ٤٢٥]. ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، رقم(٨١٣).

وجدتَها كذلكَ.

فقولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١ ـ ٣] وقولُه: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ هذا ونحوه في توحيدِ الألوهيَّةِ، فالسورة كلها تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة.

وكذلكَ غيرُها من سُورِ القُرآنِ وآياتِهِ مُتضمِنَةٌ أَنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ فلا تكادُ تجِدُ سُورةً من القُرآنِ تخلُو من ذكرِ التَّوحيدِ، وبعضُ السُّورِ خالِصةٌ في نوعٍ واحدٍ أَو أَكثرَ من أَنواعِ التَّوحيدِ. وأَكثــرُ الســورِ المكيةِ في بيان التَّوحيدِ، والدعوة إليه.

وهذا يدلُّ على أَهميَّةِ التَّوحيدِ ومكانتِه من الدِّينِ، وأَنَّه يجبُ على المُسلِمينَ العنايةُ به تعلُّماً وتعلِيماً وعَملاً؛ قال تعالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ [محمد: ١٩] وهذا خطابٌ لرسولِ اللهِ ﷺ وكلِّ

واحدٍ من أُمتهِ، أَمرهم بالتعلُّم قبلَ العملِ، تعلُّمِ العِلْمِ، ولا سيَّما علمَ التَّوحيدِ؛ لأَنَّ العملَ إذا لم يُؤَسَّسْ على عِلْمٍ! فإِنّه لا يكونُ صَحِيحاً.

فلابدَّ أَنْ يتعلَّم الإِنسانُ أَولاً ثم يعملَ، ولا يعملُ بدونِ علمٍ.

ولذا قالَ سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦ ﴾ [الزخرف: ٨٦] ﴿شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: نطق بلسانه وقالَ: لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦ ﴾ ما يَشْهدُون به مِن معنى هذه الكَلمةِ ومقتضَاها وما تدلُّ عليه، ويعمَلُون بها بعد العِلْمِ والمَعرِفَةِ.

فلابدَّ من ثَلاثةِ أُمورٍ: النطقُ بِلا إِلَه إِلاَّ اللهُ وإِعلانُ ذلك، ومعرفةُ مَعنَاها، والعملُ بمقتضَاها ظاهراً وبَاطِناً.

فالقرآنُ إِذنْ كلُّه في التَّوحيدِ وأَنواعِهِ، وحقوقِه ومكمِّلاتِه، وجزاءِ مَنْ عَمِلَ به وجزاءِ مَنْ أعرضَ عنه، كلُّه يدورُ على هذه المعانِي.

هذَا هو التوحيدُ الذي يجِبُ على المُسلِمينَ أَنْ يهتمُّوا به قبلَ كلِّ شيءٍ؛ حتى يتحقَّقَ لهم النَّصرُ والعزُّ والتَّمكينُ في

الأَرضِ، فهذه الأُمورُ لا تتحقَّقُ إلا بتحقِيق التوحيدِ الذي خَلَق اللهُ الخلقَ من أَجلِه وأَمرهم به من أَوَّلِهم إلى آخرِهم.

فكيفَ يُهَوَّنُ من شأْن التَّوحيدِ؟! فيقالُ: الناسُ الآن في مُشْكلاتٍ! المُسلمونَ في ضيقٍ وفي مُضَايقةٍ من الأَعداءِ!

يجبُ أَنْ يُعلمَ أَنَّ أَعظمَ قَضَايا المُسْلمينَ هو الإِتيانُ بالتَّوحيدِ، فَتجِبُ العِنايةُ به قبلَ كلِّ شيءٍ، وأن نُخلِّصَ الناسَ من الجهلِ بالتَّوحيدِ، ونُخلِّصَهم من الشركِ، والبدعِ والخُرافاتِ؛ حتى يتحقَّق لهم النصرُ كما تحقَّقَ لمَنْ كان قبلَهم من قرونِ هذه الأُمةِ الذين حقَّقُوا التوحيدَ قولاً وعِلْماً وعملاً، فمكَّن اللهُ لهم في الأَرضِ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾. لكن بشرط: ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]، أَي: الخَارِجون عن طاعةِ الله عزَّ وجلَّ.

هذا هو التَّوحيدُ، وهذهِ أَنواعُه، وهذه أَهميَّتُه، وهذهِ دلالةُ

القرآنِ الكريمِ عليه.

نسألُ اللهَ أَنْ يجعلنَا وإِيّاكم من أَهلِ التَّوحيدِ المُتمسِّكينَ بالكتابِ والسنَّةِ، الدَّاعِينَ إِلى اللهِ على بَصِيرةٍ، بالحِكمةِ والموعِظةِ الحسنةِ، والجدال بالتي هي أَحسنُ.

ونسأَلُه أَنْ ينصرَ دينَه ويعلِيَ كلمتَه ويصلِحَ ولاةَ أُمورِ المُسلمين وعلماءَهم.

* * *

الدرس الثاني

سُورَةُ الفَاتِحةِ

١ ـ منزلتها ومكانتها:

هذه السُّورةُ لها مكانةٌ عظيمةٌ في القُرآنِ؛ إِذْ هي أَعظمُ سورةٍ فيه، كما أَنَّ أَعظمَ آيةٍ في القُرآن آيةُ الكُرسيِّ. ولأَهميتها كُتِبتْ في أَولِ المُصحَفِ، ولهذا سميتْ فاتحةَ الكِتابِ، وهذا يدلُّ على أَهميَّتها ومكانتِها؛ لأنَّها ما قُدِّمت وجُعلتْ أَوَّلَ سورة في المُصحفِ إِلاَّ لأَهميَّتها.

٢ ـ حُكمُ قِراءَتِها في الصَّلاةِ:

ومن أَهميَّتِها أَيضاً أَنَّ الله سبحانَه وتعالى أَوجبَ قراءَتها في كلِّ ركعةٍ في الصَّلاةِ.

وقد ذهبَ جُمهورُ أَهلِ العِلْمِ إِلى وجُوبِ قِراءَتِها في الصَّلاةِ، وأَنَّ مَنْ لم يقرأْ بها في صَلاتِه؛ فإِنَّ صَلاَته لا تَصِحُّ؛

لِقولِه ﷺ: «**لاَ صَلاةَ لِمَنْ لم يقرأْ بِفاتِحة الكِتَاب**»[١]، وهذا في حق المستطيع لقراءتَها، أَما العاجز الذي لا يستطِيعُ قراءَتَها لعجزِه عن حفظِها؛ فإنّه يقرأُ ما تيسَّرَ معه من آياتِ القُرآنِ غيرِ الفَاتحةِ. وإذا كانَ لا يُحسِنُ شيئاً من القُرآنِ؛ فإنَّه يأتي بالذِّكرِ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلـهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حَوْلَ ولاَ قوّةَ إلاَّ باللهِ؛ لقولِه ﷺ: «**إذا قُمْتَ إلى الصَّلاةِ فكبِّرْ، فإنْ كان مَعَكَ قرآنٌ فاقرأْ، وإلاَّ فاْحمدِ اللهَ وكبِّرْهُ وهلِّلْهُ ثم ٱركعْ...**»[٢].

وقد ذهبَ جمهورُ العلماء إلى وجوبِها على الإمامِ والمنفَرِدِ، واختلفُوا في قِراءَتها في حقِّ المأمومِ، على ثَلاثةِ أَقوالٍ:

القولُ الأَوّلُ: إنّها واجبةٌ على كلِّ مصلٍّ: إماماً كانَ أَم

---

(١) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت:
البخاري: كتاب الأذان، باب (٩٥)، رقم(٧٥٦)، [٢/ ٣٠٦].
ومسلم: كتاب الصلاة رقم (٣٩٤).

(٢) أخرجه من حديث رفاعة من رافع.
أبو داود: كتاب الصلاة، باب (١٤٨)، رقم(٨٦١)، [١/ ٣٧٧].
والترمذي: كتاب الصلاة، باب (١١٠)، رقم(٣٠٢)، [٢/ ١٠٠].

مأموماً؛ أَمْ منفرِداً لِقولِه ﷺ: «لاَ صَلاةَ لمَنْ لم يَقْرأْ بِفَاتِحةِ الكِتَابِ» وهذا عامٌّ في كلِّ مصلٍّ. وقالَ ﷺ: «لَعَلَّكُمْ تقرءُونَ خَلْفَ إِمامِكُم»؟! قالوا: نعم، يا رسولَ اللهِ، قال: «لاَ تَفعلُوا إلاَّ بِفَاتحة الكِتَابِ؛ فإِنَّه لا صَلاَةَ لمنْ لم يقرأْ بها»(١). وهذا مذهب الإمام الشَّافعِيِّ وجَمعٍ من المحدِّثين كالإِمام البخاريِّ وغيرِه، يرونَ وجوبَ قراءَتِها على الإِمام والمأْمومِ والمنفرِد.

القَوْلُ الثَّانِي: إِنَّها لا تجِبُ على المأْمومِ؛ لأَنَّ قِرَاءةَ الإِمامِ تجزئُ عنه؛ لقوله ﷺ: «مَنْ كانَ له إِمامٌ فقِراءةُ الإِمام له قِراءةٌ»(٢)، ولكن هذا الحديث في سندِه مقالٌ.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، قالوا في وجه

---

(١) أخرجه بنحوه من حديث عبادة بن الصامت:
أبو داود: كتاب الصلاة، باب (١٣٦)، رقم (٨٢٤)، [١/ ٣٦٢].
والنسائي: كتاب الافتتاح، باب (٢٩)، رقم (٩١٩)، [١/ ٤٧٩].

(٢) أخرجه من حديث جابر: أحمد برقم (١٤٦٩٨)، [٥/ ١٢٥]. وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب (١٣)، رقم (٨٥٠)، [١/ ٤٦٣]. واللفظ المذكور للبيهقي في سننه: كتاب الصلاة، باب (٢٦٥)، رقم (٢٨٩٨)، [٢/ ٢٢٨].

الاسْتِدلالِ: إنّ اللهَ جلَّ جلالُه أَمَر بالاستِماعِ لِقراءَةِ القُرآنِ والإنْصَاتِ. والآيةُ نزلتْ في شأنِ الاستِماع في الصَّلاة، يَعني: إذا قرأَ الإمامُ فَعَلَى المَأْمومِ أَنْ يُنْصِتَ ويَستَمِعَ. فدلّت الآيةُ على أَنَّه لا قراءةَ على المَأَمومِ؛ لأَنَّ الإمامَ يقرأُ لنفسِه وللمأْمُومِينَ. وهَذَا القولُ هو مَذهبُ أَبي حنيفةَ وأَحمدَ.

القَولُ الثَّالِثُ: وهو قولُ الإِمامِ مالكٍ واخْتِيارُ شيخِ الإِسْلامِ ابنِ تيميةَ وجماعةٍ مِنَ العُلماءِ، أَنَّها تجِبُ على المأْمومِ في الصَّلاةِ السِّرِّيَةِ التي لا يَجْهرُ فيها الإمامُ، كالظُّهرِ والعَصْرِ، فأَمَّا في الصَّلاةِ الجهريةِ فإِنَّها تكفِي قراءةُ الإمامِ، وعلى المَأمومِ أَنَّ يُنْصِتَ ويَستمِعَ.

قالُوا: وبهذَا تجتمِعُ الأَدِلَّةُ: فالأَدلةُ التي توجِبُ قراءَةَ الفاتِحةِ تُحْمَلُ على الصَّلاةِ السِّرِّيةِ، والأَدلةُ الأُخْرى والآيةُ الكريمةُ تحمَلُ على الصَّلاةِ الجهريةِ. وهذَا القولُ هو أَعدلُ الأَقوالِ إن شاءَ اللهُ.

٣ ـ أَسماء سورة الفاتحة:

هذه السُّورةُ لها عِدَّةُ أَسماءٍ، كلُّ اسمٍ يدلُّ على معنىً،

والشيءُ إذاكثُرتْ أَسماؤُه دلَّ ذلك على فضلِه.

فتُسمَّى: فاتحةَ الكتابِ؛ لأنَّها تُفتَتَح بها كِتابةُ المصَاحِفِ.

وتُسمَّى: أُمَّ القُرآنِ؛ لأَنَّ القرآنَ يدورُ على ما تشتمِلُ عليه هذه السُّورةُ من المعاني، فكلُّ المعاني التي اشتملَ عليها القُرآنُ وفصَّلها في آياتِه، اشتملتْ عليها هذهِ السُّورةُ بصفةٍ مجملَةٍ.

وتُسمَّى الرُّقيةَ؛ لأَنّها يُرقَى بها المريضُ؛ والدليلُ على ذلك ما في الصَّحيح: أَن نفراً من الصَّحابةِ أَضافُوا حيًّا من أَحياءِ العربِ فلم يُضَيِّفُوهم، فلُدغَ كبيرُهم - لدغتْه حيةٌ أَو عقربٌ - ولم يجِدوا له عِلاجاً، فجاءُوا إِلى هؤلاءِ النفرِ من الصَّحابةِ فَطلبُوا منهم الرُّقيةَ. فقالُوا: إِنّكم لم تُضَيِّفُونا، وإِنّا لا نرقي إِلاّ بجُعْلٍ، يعني: بأجرٍ، فحدُّوا لهم قَطِيعاً من الغنم، فقام أَحدُ الصَّحابةِ، فقرأَ عليه سورةَ الفَاتحةِ، فقامَ الرَّجلُ كأَنّما نَشِطَ من عِقالٍ. فأَخذُوا الغَنمَ، ولكنْ لم يتصرَّفُوا فيها حتَّى يَسْتأذِنُوا رسولَ اللهِ ﷺ، فَقَدِمُوا على الرَّسولِ وذكرُوا له القِصَّة، فقال: «**وما أَدراكَ أَنّها رقيةٌ**»؟! ثم إِنّه قال لهم: «**اقْتَسِموا هذه الغَنَمَ، واضْرِبُوا لي**

مَعَكُمْ بسهمٍ»(١)، وقال: «إِنَّ أَحَقَّ ما أَخذْتُم عليه أَجراً كِتَابُ اللهِ»(٢).

وتُسمَّى: الشَّافيةَ؛ لأَنَّها تَشْفِي بإِذن اللهِ من الأَمراضِ، تشفِي القُلوبَ، وتَشفِي الأَبدانَ: تَشْفِي القُلوبَ من الشُّكوكِ والأَوهامِ والوَساوِسِ، وتَشْفِي الأَبدانَ من الآلامِ، كما حَصَل لهذا اللَّدِيغِ.

وتُسمَّى: السَّبعَ المثاني؛ قالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧] المراد بالسَّبعِ المثَاني: سُورةُ الفاتِحةِ لأَنَّها سبعُ آياتٍ، وَوصِفَتْ السَّبعُ بأَنَّها مثاني؛ لأَنَّها تُكرَّرُ قراءَتُها في كلِّ ركعةٍ. وقال النبيُّ ﷺ عنها: «هيَ السَّبعُ المثانِي والقُرآنُ العظيمُ الذي أُوتِيته»(٣).

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري:
البخاري: كتاب الإجارة، باب (١٦)، رقم (٢٢٧٦)، [٤/ ٥٧١].
ومسلم: كتاب السلام، باب(٢٣).

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس: كتاب الطب، باب (٣٤)، رقم (٥٧٣٧)، [١٠/ ٢٤٤].

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلَّى: كتاب التفسير سورة (١) باب(١) رقم (٤٤٧٤)، [٨/ ١٩٦].

وتسمَّى: الصلاةَ؛ كما جاء في الحديثِ القُدسي: «قُسِّمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدِي نِصْفَينِ. . .»[(١)] ثم فَسَّر الصَّلاةَ بالفَاتِحةِ.

٤ ـ عَدَدُ آياتِها:

هذه السُّورةُ هي سبعُ آياتٍ بنصِّ القرآنِ، كما تقدّم في قولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾: فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه آية. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الآية الثانية. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الآية الثالثة. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الآية الرابعة. ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الآية الخامسة. ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية السادسة. ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هي الآية السابعة.

هذا هذا مذهبُ الجُمهورِ في عَدَدِ آياتِها.

وذهب الشافعيُّ إلى أن قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الصلاة، باب (١١)، رقم (٣٩٥)، [٢/ ٣٢٤].

﴿عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية واحدة، وهي الآيــة السـابعــة، وأن الآيــة الأولــى مــن الســورة هــي: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولهذا الاختِلاف يوجدُ في بعضِ المصاحِف كتابةَ رقم (١) بعد البسملة، إشارةً إلى أَنَّ البسملةَ آيةٌ من الفاتِحة، وفي بعضِها لا يوجَدَ هذا الرَّقم تبعاً للقول بأَنَّها ليستْ آيةً منها.

فالبَسْملةُ عند الشافعيُّ آيةٌ من الفاتِحة، وأَما الجمهورُ فالبسملةُ ـ عندهم ـ ليستْ آيةً من الفَاتحةِ ولا من غيرِها من سُورِ القُرآنِ، إلاَّ التي في سُورةِ النملِ فإِنّها ـ بإِجماعِ العُلماءِ ـ بعضُ آيةِ من تلكَ السُّورةِ، وذلك في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]. وأَما في غير ذلك فهي آيةٌ مستقِلَّةٌ، وليستْ خاصَّةً بسورةٍ معيَّنةٍ، ولذا لا يوجدُ في أَيِّ مصحفٍ كتابةُ رقم (١) عليها في سائر السُّورِ غيرَ سورةِ الفَاتحةِ؛ وذلك لأَنَّها آيةٌ مستقِلَّةٌ نزلتْ للفصلِ بينَ السُّورِ، ولذا يؤتَى بها في أَوَّلِ كلِّ سورةٍ إلاَّ في أَوَّلِ سُورةِ براءةٍ؛ لأَنَّها لم تنزلْ على الرَّسولِ ﷺ في أَوَّل هذه السُّورةِ كما نزلتْ عليه في بقيَّةِ السُّورِ، وقِيلَ في تعليلِ ذلكَ: إِن براءةَ مكمِّلةٌ لسورةِ الأَنفالِ، وقيل:

لأنها نزلت بالسيف والعذاب وافتتحت بالبراءةَ فلا يناسب تقديم ذكر الرحمة عليها. والله أعلم.

٥ ـ شَرْحُ الاستِعاذَةِ والبَسْمَلةِ:

أَما (أَعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ)؛ فهذه قَطْعاً ليستْ من الفَاتِحةِ، وإنَّما يؤتَى بالاستِعاذَةِ؛ عملاً بقولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨]، فإذا أَرادَ المسلمُ أَنْ يقرأَ القرآنَ فإنّه يَستعِيذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ في بداية قِراءَتِهِ؛ من أجلِ أَنْ يتحصَّنَ من الشَّيطانِ فلا يُشَوِّشُ عليه قراءَتَه.

ومعنى أَعوذُ: أَلتجىءُ إلى الله جلَّ وعلا، وأَحتمِي به من هذَا العدوِّ. فالعَوْذُ هو الالتِجاءُ إلى الله من الشَّيْطَانِ.

والشَّيطانُ، المرادُ به كلُّ ماردٍ عَاتٍ من الإِنسِ والجنِّ والدَّوَابِّ. من شَاطَ الشيءُ إذا اشتدَّ، أَو من شَطَن إِذا بَعُدَ؛ لأَنَّ الشيطانَ بعيدٌ من الخَيْرِ.

الرَّجيمُ؛ فَعِيلٌ بمعنى مفعولٍ، أَي: المرجومُ؛ لأَنَّ الشَّياطِينَ تُرجَمُ بالشُّهُبِ من السَّماءِ، فلا يَسترِقُون السَّمْعَ،

وتُرجمُ كذلك بذكر اللهِ سبحانَه وتعالَى. فالشَّيطانُ مرجومٌ بمعنى: أنَّه مطرودٌ ومُبْعَدٌ عن الخيرِ. فالمسلِمُ يَعتصِمُ بربِّه ويلتجىءُ إليه من هذا الشَّيطانِ؛ لئلا يضرَّه، ويَستعيذُ به من هَمزِه ونَفخِه ونَفثِه، هكذا وردَ في استِعَاذَةِ النبيِّ ﷺ(١).

والهمزُ المراد به: الصَّرْعُ؛ لأَنَّ الشيطانَ يصرَعُ الإنسانَ أَحياناً فَيُجَنَّ ويَتخبَّطُ، فإِصابةُ الجنونِ هذهِ من الشَّيطانِ، وقولُه تعالَى: ﴿... ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ...﴾ [البقرة: ٢٧٥] المرادُ به: الصَّرْعُ. فالشَّيطانُ يداخِلُ الإنسانَ ويجري منه مَجْرى الدَّمِ، ويصرَعُه أَحياناً، وإذا لم يحمِهِ اللهُ منه فإنَّه يؤذِيه بالوَساوِسِ والأَوهَامِ والصَّرْعِ.

والنفخُ معناهُ: الكبرُ؛ لأَنَّ الكبرَ من الشَّيطانِ، فهو الذي ينفخُ في الإِنسانِ.

---

(١) كما في حديث الاستعاذة في الصلاة عن أبي سعيد الخدري: أخرجه أحمد برقم (١١٤٩٣)، [٤/ ١٢٩].
وأبو داود: كتاب الصلاة، باب (١٢٢)، رقم (٧٧٥)، [١/ ٣٤٤].
والترمذي: كتاب الصلاة، باب (٦٥)، رقم (٢٤٢)، [٢/ ٩].
وبنحوه أخرجه ابن ماجه عن جبير بن مطعم (٨٠٧) وعن ابن مسعود (٨٠٨).

والنفثُ: الشِّعرُ، قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] فالشِّعر من نفْثِ الشَّيطانِ، إلاَّ ما كان من الشِّعرِ الطَّيبِ النزيهِ فإنَّه ممدوحٌ؛ قال ﷺ: «**إنَّ من البيانِ لسِحْراً، وإنَّ من الشِّعر حكماً**»(١)، لكنَّ غالبَ الشعرِ أنَّه سيِّءٌ، وأنَّه من نفْثِ الشَّيطانِ. وقيلَ: المرادُ بنفثِه: السِّحْرُ؛ قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

والاستِعاذةُ مستحبَّةٌ قبلَ القِراءَةِ في الصَّلاةِ وفي غيرِها؛ لقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، وهذا مُطْلَقٌ تدخُلُ فيه حَالُ الصَّلاةِ وغيرُها.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: الباء للاستِعانةِ، وفيه فعلٌ مقدَّرٌ، تقديرُه: أَستعِينُ باسمِ اللهِ، أَو أَتحصَّنُ باسمِ اللهِ. واسمُ اللهِ مفردٌ مضافٌ يعمُّ جميعَ أَسماءِ اللهِ تعالى، فتقولُ: أَتحصَّنُ وأَتبرَّكُ بأَسماءِ الله سبحانَه وتعالَى؛ لأنَّ أَسماءَ الله تعالى مُباركةٌ؛ قالَ تعالَى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس: أحمد: برقم (٢٤٢٤)، [١/ ٧٠١]، وروى طرفه الأول عن جماعة من الصحابة. وأخرجه أيضاً أبو داود: كتاب الأدب، باب (٩٥)، رقم(٥٠١١)، [٥/ ١٧٤].

وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] والنبي ﷺ كان في دُعاءِ الاستِفتَاح يقولُ: «وتبارَكَ اسمُكَ»، فاسمُ اللهِ مُبارَكٌ، وأَنتَ تتبرَّكُ بأَسماءِ اللهِ، فقولُكَ: باسمِ اللهِ، الجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أَي: أَتبرَّكُ وأَستعِينُ باسمِ اللهِ.

و(الله): عَلَمٌ على الإله المعبودِ الحق، وهو من أَعظمِ أَسماءِ اللهِ سبحانَه وتعالَى واللهُ معناه: المأْلُوهُ المعبودُ، من أَلِه يُؤلَه إِذا عُبِدَ، فهو المعبودُ سبحانَه وتعالَى. المقصودُ في كلِّ حاجَةٍ.

(الرحمن): اسمٌ من أَسماءِ اللهِ، يتَضمَّنُ صِفَةً من صِفَاتِه وهي الرَّحْمةُ.

(الرَّحيم) كذلك، فالرَّحمنُ والرَّحِيمُ من أَسمائِهِ، والرَّحمةُ من صِفَاتِهِ، وكلُّ اسمٍ من أَسماءِ اللهِ جلَّ وعلا؛ فإِنّه يَتَضمَّنُ صفةً من صِفَاتِهِ.

والفرقُ بينَ الرَّحمنِ والرَّحيمِ: أَنَّ الرحمنَ: ذُو الرحمةِ العَامَّةِ لجميعِ المَخْلوقَاتِ، وأَما الرَّحِيمُ فهو خاصٌّ بالمُؤْمنينَ؛ قال تعالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

٦ ـ تفسير آيَاتِ الفَاتِحةِ :

قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحمدُ هو : الثناءُ على اللهِ سبحانه وتعالَى ، فاللهُ سبحانه يُحمَدُ بمعنى : يُثْنَى عليه بأَسمائِهِ وصِفَاتِهِ وأَفعالِهِ سبحانه وتعالى . والحمدُ أَعمُّ من الشكرِ ؛ لأَن الشكرَ لا يكونُ إلاَّ على الأَفعالِ ، وأَما الحمدُ فيكونُ على الأَسماءِ والصِّفاتِ وعلى الأَفعالِ ، فالحمدُ أَعمُّ من الشكرِ . وهذا هو الفرق بين الحمد والشكر .

و«أَل» في قوله : (الحمد لله) ، للاستغراقِ أَي : جميعُ المحامدِ للهِ سبحانَه وتعالَى مِلكاً واستِحقاقاً . فلا يستحِقُّ الحمدَ على الإِطْلاقِ إلاَّ اللهُ جلَّ وعلا ؛ لأَنَّه هو المنعِمُ ذو الإِنْعامِ المطلَقِ ، فلَه الحمدُ المطلَقُ سبحانه وتعالى ، ففي قولِه : (الحمد لله) ، أَي : جميعُ المحامِدِ للهِ سبحانَه وتعالى .

وأَما المخلوقُ فإِنّه يُحمَدُ على قَدْرِ ما يجري منه من الخيرِ ، ولكن اللهَ هو الذي جعل فيه هذا الخيرَ ، فأَصلُ الحمدِ ، لله عزَّ وجلَّ .

قولُه : (رب العالمين) ، الربُّ هو : المربي لخلقِه سبحانه

وتعالى بِنعمه، وهو المالِكُ لهم، فالربُّ: يطلق ويُرادُ به المربي، ويُطْلَقُ ويُرادُ به المالِكُ، واللهُ هو مالكُ جَميعِ الخَلْقِ، ويُطلَق ويُرادُ به المُصْلِحُ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يصلح أحوال عبادَه ويتولاَّهُم.

ولا يُطلقُ لفظُ الربِّ إلاَّ على اللهِ سبحانَه وتعالَى، أَما إِطْلاقُه على غيرِ الله فلابدَّ أَنْ يُقيَّد بالمضافِ إِليه، فيُقال: ربُّ الدَّارِ، ربُّ الإِبلِ، أَيْ: صاحبُها ومالكُها.

أَما إِذا أُطلِق الربُّ أَو ربُّ العالَمينَ، فإِنَّه خاصٌّ باللهِ سبحانه، لا يجوزُ وصفُ غيرِهِ بهِ.

والعَالَمينَ: جَمْعُ عالَم، وهو: كلُّ ما سوى الله سبحانه وتعالَى. والعَوالِمُ في الكونِ كثيرةٌ، لا يعلَمُها إلاَّ اللهُ سبحانَه وتعالى، ومنهَا: عالمُ الإِنسِ، وعالَمُ الجن، وعالَمُ الملائِكةِ وعالَمُ الجَماداتِ، وعالَمُ الحيوانَاتِ، كلُّ أَجناسِ الخَلْقِ يُقالُ لها؛ عوالِمُ، وربُّها هواللهُ جلَّ وعلا، لا أَحدَ يخرج من رُبوبيتِه سبحانَه وتعالَى.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عرفنا تفسيرَهما

في شرحِ البَسْملةِ.

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ في قِراءةٍ (مالكِ) بالألف، وفي قراءة (مَلِك)، وكِلاَ القراءتين صحيح، فهو سبحانه مالكٌ ومَلِكٌ.

﴿... يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: المرادُ بالدِّين هنا: الحِسابُ والجَزاءُ، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾: [الانفطار: ٩] أي: الحساب والجزاءِ.

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: ١] يعني: يكذِّبُ بالجزاءِ والحِسَابِ، والبعثِ والنُّشورِ.

وقال تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التين: ٧]، أَي: بالحِسابِ والجَزاءِ والمُجازاةِ يومَ القِيامةِ. فيومُ الدِّين هو يومُ القيامَةِ، سُمِّي يومَ الدِّين؛ لأَنَّه يومُ الجزاءِ والحسابِ.

لماذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مع أَنه مالكُ يومِ الدِّين وغيرِه؟

خُصَّ يومُ الدِّين بالذِّكر؛ لأَنه لا مُلْكَ في ذلكَ اليومِ إلا للهِ

سبحانه وتعالَى، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فالملوكُ وأَفرادُ النَّاس سواءٌ في هذا اليومِ، ليس لأَحد مُلْكٌ إلا اللهُ جلَّ وعلا، فلذلك خصَّه به في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وإنْ كانَ مالكاً لغيره - سبحانه وتعالى - لزوال ملكِ غيرِه فيه؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إنَّ الله سبحانَه وتعالَى يَقولُ: أَنا الملِكُ، أَين المتكبِّرونَ؟ أَين الجبَّارونَ؟**»(١) وهذا كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

يتَسَاوى في هذا اليومِ جميعُ النَّاسِ: ملوكُهم وعَبيدُهم، فقراؤُهم وأَغنياؤهم وأَشرافُهم، لا أَحد يتميَّزُ عن أَحدٍ إلاَّ بالعملِ الصَّالح.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أَي: نخصُّكَ بالعِبادَةِ، وقَدَّم إِياكَ؛ للدلالة على الاختِصاصِ وأَنَّه لا يَستحِقُّ العبادةَ أَحدٌ إلاَّ الله

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمر: كتاب صفات المنافقين، باب (١)، رقم(٢٧٨٨).
وأصله في البخاري: كتاب التوحيد، باب (١٩) (٧٤١٢)، [٣/ ٤٨٠].

سبحانه وتعالى. وهذا من باب الحصرِ؛ لأَنَّ تقديمَ المَعْمولِ على العَامِلِ يُفِيدُ الحصرَ، أي: فلا يَستحِقُّ العبادةَ إلاَّ أَنْتَ.

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، أَي: نطلُبُ الإعانَة.

والاسْتِعَانَةُ نوعٌ من العِبادة، فلِماذا أَفردَها مع أَنَّها داخلةٌ في قولِه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾؟

قالوا: هذا من عَطْفِ الخاصِّ على العَامِّ؛ وذلك لأَنَّ العبادةَ حقٌّ للهِ جلَّ وعلا، والاستِعانةُ حقٌّ للمخلُوقِ؛ إذْ هو الذي يَسْتعِينُ باللهِ عزَّ وجلَّ ويطلُبُ منه حوائِجَهُ.

وكرر ﴿ إِيَّاكَ ﴾ ـ ولم يقل: إياك نعبد ونستعين؛ لتأكيدِ الاختِصاصِ، وأَنَّه لا يَستحِقُّ العبادةَ ولا يَستحِقُّ الاستِعانةَ أَحدٌ إلاَّ اللهُ سبحانَه وتعالَى، فهو المعِينُ وحدَه. وكلُّ الدِّين يَدُورُ على العِبادةِ والاستِعانَةِ، على هَاتين اللفظتين العظيمتين: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ هذا دعاءٌ. وهو دعاءُ مسألةٍ، والذي سبق في أَوَّلِ السُّورةِ ـ وهو قولُه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ـ دعاءُ عبادةٍ؛ لأَنَّ الدعاءَ ينقَسِمُ

إلى قِسْمين:

دعاءُ عبادةٍ، وهو: الثناء على اللهِ، فالثناءُ على اللهِ دعاء، وهو دعاء عبادة. ودعاءُ مسألةٍ، ومنه قولُه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة.

(اهدنا)، الهداية هي: الدِّلالةُ والإِرشادُ، أي: دلَّنا وأَرشِدْنا.

والهِدايةُ أَربعة أَقسام، لكنَّ أَهمَّها قِسْمانِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: هدايةُ الدِّلالةِ والإِرشادِ، وهذهِ عامَّةٌ من جهتين: من حيث الهدى فهي تحصُل للمؤمِن والكافِر، واللهُ قد هدى الكافِرَ، بمعنى أَنَّه دلَّه وأَرشدَه وبيَّن له الطريق الحق؛ قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] أي: أَرشدناهم. وهي أَيضاً عامة من حيث الهادي والمرشد، فيدخل فيها الرسول ومن اتبعه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢].

القسم الثاني: هداية التوفيق لقبول الحق، وهذه خاصة أيضاً من جهتين: لا تحصل إلا للمؤمن. وهي من خصائص الله

سبحانه وتعالى، ولذا نفاها عن رسول الله ﷺ فقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . . . ﴾ .

وقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ يعمُّ الهدايتينِ: هدايةَ الدِّلالةِ والإِرشاد، وهدايةَ التَّوفِيق، ، دُلَّنا وأَرشِدْنا، وثبِّتْنا ووفِّقْنا.

﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾، هو في اللغةِ: الطِّريقُ والجادَّةُ، التي يمشِي عليها النَّاسُ والحَيوانات. والمرادُ بالصِّراطِ هنا: الإِسْلَامُ والقُرآنُ والرَّسُولُ ﷺ؛ وسُمِّي كلٌّ من هؤلاءِ صراطاً وطَرِيقا؛ لأَنَّه يوصِّلُ إلى اللهِ سبحانه وتعالى.

﴿ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، معناه: الذي لا اعوِجَاجَ فيه ولا خَفَاءَ، مستقيمٌ واضِحٌ لا يضِلُّ مَنْ سارَ عليه، بخلافِ الطّرقِ المعوجَّةِ المختلِفَةِ فإِنَّ مَنْ يسيرُ عليها يَضِلُّ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . . . ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فصراطُ اللهِ واحد لا انقسام فيه، ولا اعوجاج ولا خَفَاءَ. أَمّا الصِّراطُ المعوَجُّ فهذا طريقُ الضَّلال، والعياذُ باللهِ. ولهذا لما قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ . . . ﴾ خطَّ

ﷺ خطًّا مُستقِيماً وخطَّ على يمينِه وشِمَالِهِ خُطُوطاً كثيرةً، وقال: «هذا صِرَاطُ اللهِ» للخطِّ المعتدِلِ، وقال عن الخطوطِ الأُخرى: «وهذه السبل، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»(١).

قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: الصِّرَاطَ تارةً يضِيفُه اللهُ لنفسِه، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا . . .﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣] يُضِيفُه إِلى نفسِه سبحَانه وتعالى؛ لأَنَّه هو الذي شَرَعَه، ودلَّ عليه، ووضَّحه للنَّاسِ، ولأَنَّه الصراط الذي يوصِّل إِلى الله جل وعلا، فأَضافه إِلى نفسه إِضافة تشريف وتكريم، ودِلالةً على أَنَّه يوصِّلُ إِلى اللهِ سبحانَه وتعالَى.

وتارةً يُضِيفُه إِلى أَهلِه، كما في هذهِ الآية: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أضافَه إِلى الذين أَنْعَمَ عليهم؛ لأَنَّهُم

(١) أخرجه من حديث ابن مسعود: أحمد. برقم(٤١٤٢)، والحاكم: كتاب التفسير، رقم (٣٢٩٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه ابن ماجه من حديث جابر. كتاب المقدمة، باب (١)، رقم (١١)، [١/١٥].

هم الذين يَسِيرُون عليه بخِلافِ أَهْلِ الضَّلالِ فإِنَّهم يَسِيرُون على طرقٍ ضالَّةٍ.

﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾: حيثُ هديتَهم إلى سُلوكِ هذا الصِّراطِ ووفقتَهم له، وهذه أَعظمُ نعمةٍ من اللهِ سبحانَه وتعالَى. ومَن هم الذين أَنعمَ اللهُ عليهم؟ بَيَّنَهم اللهُ في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ. . . ﴾ [النساء: ٦٩].

فهذا الصِّراطُ مَن الذي يسيرُ عليه؟ يسيرُ عليه الذين أَنعمَ اللهُ عليهم: من النَّبيينَ، هذا الصنفُ هم أَولُ مَنْ يسيرُ عليه. والصِّديقين؛ لأَنَّ الصِّدِّيقينَ. هم أفضل الخلق بعد الأنبياء. والشهداء في سبيل الله بعد مرتبة الصِّدِّيقين والصَّالِحينَ وهم سائرُ المُؤمِنين.

فالذين يسِيرونَ على هذا الصراط المستقيم طبقات: أول طبقة هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم يليهم الصدِّيقون، ثم يليهم الشهداء، ثم يليهم الصالحون من كل أُمة.

نسألُ اللهَ أَنْ يجعلَنا وإياكم نَسِيرُ على هذا الطَّريق المُستقيمِ

في مُرافَقةِ هَؤلاءِ ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾، والإنسانُ في هذهِ الدُّنيا ـ وهو يسيرُ على الطَّريق المُستقيم ـ يجدُ مُضايقاتٍ وشَدائِدَ وأَذَىً، ويُحِسُّ بغُربةٍ بينَ النَّاسِ، وربما نالُوا منه بالضَّرْبِ والتَّهكُّمِ، والتَّهدِيدِ والتنقُّصِ.

فإذا تذَّكَر أَنَّ رُفقاءهُ هَؤلاءِ الذين أَنعم اللهُ عليهم من النَّبيينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ، فإنّه يَطمئنُّ ويَصبِرُ على مَا ينالُه في سُلوكِ هذاالصِّراطِ.

والسَّيرُ على هذا الصِّراطِ محفوفٌ بالمكارِهِ، مَحفوفٌ بالشَّدائِدِ والمشاقِّ، ليسَ مفروشاً بالوُرودِ، فلذا كان لابُدَّ لسلوكِه من صَبرٍ طَويلٍ، وعَزمٍ أَكِيدٍ، ومما يُعِينُكَ على سُلوكِهِ ويُهوِّنُ عليكَ شدائدَه تذكُّرُكَ أَنكَ تُرافِقُ هَؤلاءِ، لكنْ هذا يَحتاجُ إِلى إِيمَانٍ، وقلَّ مَنْ يوفَّقُ لذلِكَ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥] فالَّذِين أَنعمَ اللهُ عليهم هم: أَهلُ العلمِ النَّافِعِ والعَملِ الصَّالِحِ، من النَّبيينَ والصِّديقِينَ والشُّهداءِ والصَّالِحين.

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ مَن هم

المغضوبُ عليهم؟ هم الذين عَلِموا ولم يَعملُوا، تعلَّموا العلمَ النَّافِعَ وفقِهوا ولكنَّهم لم يعملوا بعلِمهم، فهؤلاءِ مَغضوبٌ عليهم؛ لأَنَّهم عصَوا اللهَ على بَصِيرةٍ. وهذا يشمَلُ كُلَّ من لا يعمَلُ بعلمِه فإنَّهم مغضوبٌ عليهم، وفي مُقدِّمةِ هَؤلاءِ اليَهودُ؛ لأَنَّ اليهودَ عندَهم عِلمٌ، وقد سمَّاهمُ اللهُ أَهلَ الكِتابِ وأَهلَ العلمِ، ولكنَّهم لمَّا لم يَعمَلُوا بعلِمهم غَضِبَ اللهُ عليهم، وليسَ هذا خاصًّا بهم، بل هو عامٌّ لكلِّ مَنْ سَلَكَ طريقَهم ممن تعلَّم العلمَ ولم يعملْ به.

﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ الضَّالونَ هم: الذين يَعملُون بدونِ علمٍ؛ لأَنَّهم ليْسُوا على هُدىً مثلَهُم مثلُ مَنْ يمشِي وهو لا يعرفُ الطَّريقَ. أَليسَ الذي يمشي في البَرِّ وهو لا يعرفُ الطريقَ يقالُ له في اللغة: ضَالٌّ؟ وأَنه على خطرٍ من الهَلاكِ؟ فالذي يَعمَلُ بدونِ علمٍ ضالٌّ في الشرع. والعياذ بالله.

وإِنْ كان يعملُ ويُتعِبُ نفسَه ويتقرَّبُ إِلى اللهِ ويبكِي ويَصِيحُ، يريدُ الجنةَ، لكنه لَمَّا كان يسيرُ على غيرِ طريقٍ صَحِيحٍ لم ينفعْه ذلك، ويدخلُ في الضَّالِّين: النَّصارىَ؛ لعملِهم بِدونِ علمٍ، ويدخُلُ فيهم الخُرافِيُّون والمبتدِعَةُ؛ لأَنَّهم يَعمَلُون بدونِ

علمٍ.

فالمصلي والقارئ لسورة الفاتحة يسألُ الله أنْ يجنبه طريقَ هَذَينِ الصِّنْفَينِ: الذين معهم علمٌ ولا يعمَلُون به، والذين معهم عملٌ ولكن بدونِ علمٍ.

وتوجدُ الآن بعضُ الجماعاتِ تزهِّدُ في العلمِ وتعلُّمه، يقولون للناس: اشتغِلُوا بالعِبادةِ والذِّكرِ، واخْرجُوا في سبيلِ اللهِ، ويعنُون بسبِيلِ اللهِ: الخروجَ والسَّفَرَ والتجوُّلَ في البلدان، ويزهِّدُونَ في طلبِ العلمِ ويهوِّنُون من شأنه وشأنِ أَهلِه! وهذا الطريق ضَلالٌ، والعياذُ باللهِ. فلابدَّ من العلمِ أَوَّلاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾. فبدأ بالعلم قبل القَولِ والعمل.

وقد دلَّتِ الآياتُ السابِقَةُ على أَنَّ النَّاسَ بالنسبةِ إلى العلمِ والعَملِ ثلاثةُ أَصنافٍ.

فالذين جمعُوا بينَ العلمِ النَّافِعِ والعَملِ الصَّالِح هم الذين أَنعمَ اللهُ عليهم. الذين تسألُ الله ـ في هذه السُّورةِ ـ أَنْ يهدِيَك صراطَهُم.

والذين أَخَذُوا العلمَ وتركُوا العملَ، هم المغضوبُ عليهم من أيِّ ملَّةٍ ومِن أي دين.

والذين أَخذَوا العملَ وتركُوا العِلْمَ هم الضالُّون. وكِلَا الفَرِيقَينِ خَاسِرٌ. نَسأَلُ اللهَ العَافِيةَ.

فإِذا تأَمَّلتَ هَذه السُّورةَ أَدركْتَ السرِّ في عَظَمتِها، وأَنَّ اللهَ ما جعلَها تُقرأُ في كلِّ ركعةٍ من رَكَعَاتِ الصَّلاةِ إلاَّ لمكانتِها وعَظمتِها بينَ سائِرِ السُّورِ.

ومن ذلكَ ما تشتمِل عليه هذه السُّورةُ من هذا الدُّعاءِ العَظِيمِ: دعاءِ العِبادةِ في أَوَّلِها، ودُعاءِ المسْأَلةِ في آخرِها، فهي كلُّها دعاءٌ، ولهذا يُسْتحبُّ في الصَّلاةِ إذا فرغَ المصلِّي من قِراءَتِها أَن يقولَ: آمينُ (الإِمامُ والمأمومُ والمنفردُ يُستحبُّ لهم ذلك)، وآمينُ معناهُ: اللهُمَّ استجِبْ، أَي استَجِبْ هذا الدعاءَ، فهو تأمينٌ على دعاءِ هذه السُّورةِ. وآمينُ ليستْ واجِبةً في الصَّلاةِ ويستحب أَنْ يجهرَ بآمينَ، في الصلاة الجهرية سواءٌ كان إماماً أَم مأموماً أَم مُنفرِداً. أَما إذا كان يقرأْ سرّاً فإِنه يُسِرُّ بها.

٧ ـ مما جَاءَ في فَضلِها :

ومَن عظمةِ هذه السُّورةِ ما جاءَ في الحديثِ القُدسيِّ ـ وهو في الصَّحِيحِ ـ أَنَّ اللهَ جلَّ وعلا يقولُ : «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبينَ عَبْدِي نِصْفَين، ولِعبْدِي ما سألَ**» والمرادُ بالصَّلاةِ هنا الفَاتِحةُ، سميتْ صَلاةً لأَنَّها تُقرأُ في الصَّلاةِ. ولأن الصلاة في اللغة: الدعاء، وسورة الفاتحة دعاء.

قوله: «**بيني وبين عبدي نصفين**»، فهي سبعُ آياتٍ: ثلاثُ آياتٍ ونصفٌ للهِ جلَّ وعلا. وثلاثُ آياتٍ ونصفٌ للعبد، «فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قال الله تعالى: حَمَدَني عَبدِي ، وإذا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، قال اللهُ سبحانه: أَثنى عليَّ عَبدِي، وإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، قال اللهُ تعالى: مَجَّدنِي عَبدِي، وإذا قالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل».

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، هذا لله ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، هذا للعبد. فمن قولِه ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . . . ﴾ إلى آخرِ السُّورةِ هذا للعبدِ؛ لأَنَّ العبدَ يدعُو به ربَّه. ومن قولِه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

وتعالـــى؛ لأنَّه كلَّه ثناءٌ على اللهِ جلَّ وعلا. فهذا يدلُّ على عظمةِ هذه السُّورةِ، ولهذا قال: «فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قـــال: «هـــذا لعبـــدي ولعبـــدِي ما سأل»[(١)].

٨ ـ الفوائِدُ المستنبطَةُ منها:

ومما يتعلَّق بهذه السُّورةِ ويدُلُّ على عَظمتِها ما قالَه العُلماءُ رحمهم الله: إنَّ هذهِ السُّورةَ تَشتَمِلُ على معان جليلةٍ، منها:

أَوَّلاً ـ فيها إِثْباتُ التَّوحيدِ بأنواعِهِ الثَّلاثَةِ: فقولُه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ هذا في توحيدِ الرُّبوبيةِ. وقولُه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ هذا في تَوْحيدِ الأَسْماءِ والصِّفَاتِ. وقولُه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هذَا في تَوْحيدِ الأُلُوهيَّةِ. ففيها أَقسامُ التَّوحيدِ الثَّلاثَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الصلاة، باب (١٠)، رقم(٣٩٥)، [٢/ ٣٢٤].

ثانياً: ـ فيها إِثباتُ الرِّسَالَةِ؛ لأَنَّ قولَه ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فيه إِثباتُ ربوبيته لجميع خلقِه.

ومقتضى ربوبيته أن لا يترك عباده بدون ما يصلحهم. ومن أعظم ما يُصلحُ العبادَ إرسالُ الرُّسُل. كذلك قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإِنَّ الصراط المستقيمَ لا يتبيَّنُ إلاّ بإرسالِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ. ففيها إثباتُ الرِّسَالاتِ.

ثالثاً: فيها الردُّ على الطَّوائِفِ الضَّالَّةِ.

ففيها الردُّ على الملاحِدةِ والمُعطِّلةِ الذين لا يُؤمِنُون بربٍّ؛ فإن قولَه: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ردٌّ على الملاحدة الذي يَرونَ أَنَّ العَالمَ ليسَ له ربٌّ، وإنما هُوَ الذي يُكَوِّنُ نفسَه! والطبيعةُ هي التي تُكوِّنُ هذه الأَشياءَ وتُوجِدُهَا!! وهذا مخالف للعقولِ؛ لأَنَّه لا يُمكِنُ وجودُ مخلوقٍ بدونِ خَالِقٍ، ولا يُمكِنُ حصولُ فعلٍ بِدُونِ فَاعلٍ أَبداً. فهذا الكونُ كلُّه وهذا الخَلْقُ يدلُّ علَى الخالِقِ سُبحانه وتعالَى، وأَنَّه هو الذي أَوجدَه وصرَّفَه ودبَّره وكَوَّنَه.

وفيها ردٌّ على المُشرِكينَ الذين يُؤمِنونَ بالربِّ لكن

يُشْرِكُون معهُ في العِبادةِ، وذلكَ في قولِه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقولِه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وقولِه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، هذا كلُّه فيه ردٌّ على المُشرِكينَ الذين يعبدُون اللهَ ويعبدونَ معَه غيرَه.

وفيها ردٌّ على الجَهمِيَّةِ والمُعتزِلة ومُنكرِي الصِّفَاتِ.

وفيها الردُّ على مُنكرِي البَعْثِ، وذلكَ في قولِه: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، والدِّين هنا هو الجَزاءُ والحِسَابُ، ففيها إثباتُ البَعْثِ.

وفيها الردُّ على اليَهودِ والنَّصَارى ومَن سَارَ على طريقِهم ممَّن أَخذَ العلمَ وترك العملَ، أو أَخذَ العملَ وتَركَ العِلْمَ، ففيها ردٌّ على كلِّ عالِمٍ لا يَعمَلُ بعلمِه، وردٌّ على كلِّ عاملٍ لا يَعملُ على عِلْمٍ، ولهذا يقولُ العُلماءُ: إِنَّ هذه السُّورةَ تَضمَّنتِ الردَّ على جَمِيعِ الطَّوائِفِ، فَحُقَّ لها أَنْ تُسمَّى أُمَّ الكِتَابِ؛ لأَنَّ أُمَّ الشيءِ هي التي يَرْجِعُ إِليها الشيءُ، والقرآنُ كلُّه يَرجِعُ إِلى هذهِ السُّورةِ؛ لأَنَّ القُرآنَ كلَّه يدورُ على هذهِ المعاني التي تضمَّنَتْها هذه السُّورةُ.

وهذه السُّورةُ العظيمةُ كثيرٌ من الناس يقرؤُها ويُردِّدُها على لِسَانِه، ولا يتدبَّرُها ولا يفْقَه شيئاً من معانِيها، وإنَّما هيَ أَلفاظٌ تجرِي على لِسَانِهِ كأَنَّه كلامٌ أَعجميٌّ!! وهذا من الخطأِ الجَسِيمِ والخَللِ الكَبِيرِ، والقُرآنُ إِنّما أُنزِلَ ليتُدبَّرَ وتُفهَمَ معانِيه. هذا: واللهُ أعلم.



الدرس الثالث
تفسير الآيات العِشْرِيْنَ الأُول من سُورَةِ البَقَرَةِ

١ ـ تمهيـــد :

هَذِه السُّورةُ الثَّانِيةُ في المُصْحفِ، تُسمَّى سُورةَ البقرةِ؛ لأَنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى ذكرَ فيها قِصَّةَ البَقرةِ التي أُمِر بنو إِسرائيل بِذبحها لِمعرِفَةِ قاتِلِ القَتيلِ الذي اشْتبهُوا في قاتله.

وهذِهِ سُورةٌ عَظِيمةٌ تضمَّنتْ علوماً غَزِيرةً في العَقِيدةِ والأَحكامِ وقَصصِ الأُممِ السَّابِقَةِ وغيرِ ذلك. وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على تعلّمِها، فقال: «**تعلَّموا سُورةَ البقرةِ؛ فإِنَّ أَخذَها بَرَكَةٌ، وتركَها حَسْرَةٌ، ولا يَستطيعُها البَطَلَة**»(١) أي: الشَّيَاطِينُ لا يَستطِيعُون البَقاءَ في المكانِ الذي تُقرأُ فيه هَذهِ السُّورة؛ كما جاء في الحديث: «**إِنَّ الشَّيطان يَنفِرُ من البيَتِ الذي تُقرأُ فيه سُورَةُ**

(١) أخرجه أحمد من حديث بريدة: برقم (٢٣٣٣٨) [٦١٨/٧].

البَقرةِ»(١).

ومعنى تعلُّمِها وأَخذِها: تعلُّمُ قِراءَتِها على الوَجْهِ الصَّحِيح ومعرفةُ معانِيها وتَفْسِيرِها، وليسَ المرادُ مجردَ القِرَاءَةِ، أَو تعلُّمَ القِراءَةِ فقط، إِنَّما المرادُ تعلُّمُ قِراءَتِها وتعلُّمُ مَعانِيها حتى يَعملَ بها، ولهذا يقولُ أَحدُ الصَّحابَةِ: **«كنَّا لا نتجاوزُ عَشْرَ آيَاتٍ حتَّى نتعلَّمَ معانِيْهَا والعملَ بها، قال: فتعلَّمْنَا العِلْمَ والعملَ جَمِيعا»**(٢)، هذا هو المقصودُ من تعلُّمِ البَقرةِ وغيرِها من القُرآنِ، تعلُّم القِراءَةِ على الوَجْهِ الصَّحِيحِ، وتعلُّمُ المَعاني والتَّفْسِيرِ، بقصدِ العَملِ والامتِثَالِ.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾: افتتح اللهُ هذهِ السُّورةَ بقولِه: ﴿الٓمٓ ۝١﴾، وهي من الحروفِ المُقَطَّعةِ، افتتح اللهُ بها كَثيراً من السُّورِ، ومن هَذِهِ الحُروفِ: ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿الٓمٓر﴾، ﴿حمٓ﴾ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿طه﴾، ﴿يسٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿حمٓ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب صلاة المسافرين، باب (٢٩) رقم (٧٨٠) [٣/ ٣١٠].

(٢) كما حكاه عن جماعة منهم: أبو عبدالرحمن السلمي. أخرجه عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٨٠).

عَسٓقٓ ﴾.

وقد اختلفَ العُلماءُ فيها على أَقوالٍ، نكتفِي منها بقَوْلَينِ:

القَولُ الأَوَّلُ: ذهبَ الجُمهورُ إلى أَنَّها تُمَرُّ كما جَاءَتْ؛ لأَنَّها ممَّا استأثرَ اللهُ تعالى بعلمِه فلا يُبْحَثُ عنها؛ لأَنَّه لا دَلِيلَ على البَحثِ فيها وتعيينِ المُرادِ منها.

القَولُ الثَّانِي: إنَّ هذه الحروفَ إشَارةٌ إلى إعجاز القُرآنِ، وأَنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى أَنزلَ هذا القُرآنَ مكوَّناً من هذهِ الحُروفِ التي يَنْطِقُ بها العَربُ ويَتَخاطَبُون بها، ومع هذَا لم يَستطيعوا أَنْ يأْتُوا بمثلِ هذَا القُرآنِ أَو مِثْلِ سورةٍ أَو آيةٍ منه، فهذا إشارةٌ إلى الإعجازِ؛ ولهذا ـ في الغَالِبِ ـ إذا جاءتْ هذه الحروفُ يأْتِي بعدَها ذِكْرُ القُرآنِ، كما في هذهِ السُّورةِ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، وقولـه في أَول الأَعـراف: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ . . . ﴾ [الأعراف: ١ ـ ٢]، وقوله: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [قٓ: ١]، وقوله: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [صٓ: ١]، وقولـه: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [السجدة: ١ـ٢]، إلى غير ذلك. وهذا يدلُّ على

الإعجازِ، وهو أَنَّ القُرآنَ مركَّبٌ من مِثْلِ هذه الحروفِ، ومع هذا عَجَزْتُم عن الإتيانِ بمثلِه أَو بمثلِ سُورةٍ منه. وهذا القولُ وجيهٌ، ذكرهُ شيخُ الإسلامِ ابن تَيميَّةَ وغيرُه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: ذا اسمُ إشارةٍ، واللامُ للبُعدِ، والكافُ حرفُ خِطابٍ. أَشَارَ إلى الكتابِ الذي هو القرآنُ إشَارةَ تَعْظِيمٍ وإجْلالٍ، أَي الذي لا يُشَابِهُهُ غيرُه، فهو أَعظمُ كتابٍ نزَلَ من اللهِ سبحانَه وتعالَى.

ثم قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: نَفَى عنه الرَّيبَ، والرَّيبُ: الشَّكُّ، فلا يتطرَّقُ إليه شكٌّ، ولا يأْتيهِ البَاطِلُ من بينِ يديْهِ ولا من خلْفِه، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾: هذه صِفةٌ ثَانيةٌ للقرآن، والهُدَى معناه: الدِّلالةُ والإرشادُ إلى الطَّريقِ الصَّوابِ، فالقرآنُ فيه دِلالةٌ وإرشادٌ إلى طريقِ الحقِّ وطَريقِ الجنَّةِ. والهُدى ـ كما ذكرنا ـ يَنقسمِ إلى قِسْمَينِ: هدى دلالةٍ وإرشادٍ، وهدى توفيقٍ وإلهامٍ، أَو هدايةِ القُلوبِ، فهذا القرآن هدىً للمتقين.

والمتَّقون: جمع متَّقٍ، وهو: من اتَّصفَ بالتَّقوى، والتَّقْوى: أَنْ تَجْعَلَ بينَك وبينَ غَضَبِ اللهِ وعَذابه وِقايةٌ تَقِيكَ منه، وذلكَ بِطاعةِ اللهِ وطَاعَةِ رسولِه ﷺ. فالمرادُ بالمتَّقِين: الذين اتَّخذوا بينَهم وبيْنَ عَذابِ اللهِ وِقَايةً بِطاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى.

وعرَّفَ العُلماءُ التَّقوى بأَنَّها: أَنْ تفْعَلَ ما أَمَرَكَ اللهُ على نورٍ من اللهِ تَرجُو ثوابَ اللهِ، وأَنْ تتركَ ما نَهى اللهُ عَنْه على نورٍ من اللهِ تخافُ من عقابِ اللهِ. هذِه هي التَّقْوى، وحاصِلُها: أَنْ تجعلَ بينكَ وبين المَكرُوهِ وقايةً، بحيثُ لا يَصِلُ إِليكَ، فإِنْ لم تحصُلْ لك هذهِ الوِقَايةُ فإِنَّ لا شَكَّ متوعَّدٌ بالعذاب.

لِماذا خَصَّ المتَّقين بالذكر مع أَنَّه هدايةٌ لجميعِ النَّاسِ؟ كما قَالَ في أَثناء هذهِ السُّورةِ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: لجميع النَّاسِ، بمعنى: أَنَّه دلَّ النَّاسَ، على الخيرِ، فمَنْ أَرادَ الخيرَ وجَدَه، ومَنْ أَعرضَ قامتْ عَليه الحُجَّةُ؛ لانَّ اللهَ هَدَى جميعَ النَّاسِ، بمعنى: أَنَّه بيَّن لهم ودلَّهم وأَرشدَهم، فمنهم مَنِ انتفعَ، ومنهم مَنْ لم

يَنتفِعْ.

والجوابُ: أنّه إنما خَصَّ المتَّقِين؛ لأَنَّهم هم الذين انتفَعُوا به واهتَدوا به. وأَمّا غيرُهم فإِنَّما قامتْ عليهم الحجةُ وانْقطَعتْ معذِرتُهم، حيثُ لم يبقَ لهم عذرٌ عندَ الله سبحانَه وتعالَى.

٢ ـ أقسام الناس أمام هداية القرآن:

ثم لَمَّا ذكرَ أَنَّ هذا القرآنَ هدىً، قَسَّمَ النَّاسَ أَمامَ هِدايةِ القُرانِ إلى ثَلاثةِ أَقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: الذين آمَنُوا به ظَاهِراً وبَاطِناً وامتثَلُوا أَحكامَه أمراً ونهياً.

القِسْمُ الثَّانِي: الذِين كَفَروا به ظَاهِراً وبَاطِناً.

القِسمُ الثَّالِثُ: الذين آمنُوا به ظَاهِراً وكَفُروا به بَاطِناً.

القِسْمُ الأَول: هم المتقَّون، وذَكر اللهُ فيهم ثَلاثَ آياتٍ هي: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٣-٥] هذه ثلاثُ آياتٍ، تَتضمَّنُ خمسَ صِفَاتٍ لهَؤلاءِ:

الصِفَةُ الأُولى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: يُصدِّقون بما أَخبر اللهُ أَو أَخبرَ رسولُه عَنْه من الغُيوبِ التي لم يَرَوْهَا، وإنما صَدَّقُوا بها اعتِماداً على خَبَرِ اللهِ وخبرِ رَسُولِهِ ﷺ.

والغَيْبُ: كلُّ ما غابَ عن النَّاسِ ولم يُشَاهَدْ من الأُمورِ الماضِيَةِ، والأُمور المُسْتَقبَلةِ، ومن العَوالِمِ الأُخرى التي لم يَروْهَا وإنّما أَخبر اللهُ عنها. وأَوّلُ الإيمانِ بالغَيبِ: الإِيمانُ باللهِ سُبحانَه وتعالَى وبأَسمائِهِ وصِفَاتِه؛ ذلك لأَنَّ المؤمِنينَ لم يروا ربَّهم في هذهِ الدُّنيا، وإنما آمنُوا به وعرَفُوه بآياتِهِ الكَونِيَّةِ، وهي مخلوقاتُه التي تشاهَدُ في هذا الكَوْنِ دالةً على وجودِه وعَظَمتِه، وبآياتِه القُرآنيةِ المَتلُوَّةِ في كِتَابِه المنزَّلِ، وقبلَ ذلك عرفُوه بالفِطْرةِ السَّلِيمةِ التي فطر النَّاسَ عليها، والله تعالى هو الدَّليلُ على كلِّ شيءٍ ولا يَحتَاجُ إلى دليلٍ على إثباته، إلاَّ من فسدتْ فطرتُه واجتالته الشياطين.

ومن الإيمانِ بالغَيبِ: الإِيمانُ بالمَلائِكةِ، وهم من

المَخلُوقَاتِ التي يؤْمِنُ بها العَبدُ ولم يُشاهِدْها.

وكَذلِكَ الإِيمانُ بالجِنِّ (العَالَمِ الثَّانِي مع الإِنْسِ) فَيُؤمِنُ بهم العبدُ وإِنْ لم يَرَهُم؛ لأَنَّ الله أَخبرَ عنهُم وأَخبرَ عنهُم رَسُولُه ﷺ.

وكَذلِكَ الإِيمانُ بالغُيوبِ المَاضِيَةِ، مِثْلُ أَخبارِ الأُممِ السَّابِقةِ، فالمُؤمِنُونَ بِذلكَ ما شَاهَدُوا آدمَ ونوحاً وإِبراهيمَ والأَنبياءَ وأَقوامَهم كعادٍ وثَمُودَ، لكنَّ الله أَخبرَ عنهم، وأَخبرَ عنهم رسولُه ﷺ وهم يُؤمِنُون بذلك.

وكذلِكَ الغُيوبُ المُستقبلَةِ في آخِرِ الزَّمانِ مما يَكُونُ قبلَ السَّاعَةِ من الأَشْراطِ والعَلامَاتِ وعَذابِ القبرِ ونَعِيمِهِ، وما في الآخرةِ من البعث والحِسَابِ والصِّراطِ والمِيْزانِ والحَوْضِ والجنَّةِ والنَّارِ والحَشْرِ، فَيُؤمِنُون به ويُصدِّقُون؛ لأَنَّ اللهَ جلَّ وعلا أَخبرَ به وأَخبرتْ به الرُّسلُ عليهم الصَّلاَةُ والسَّلامُ.

فهُمْ يُؤمِنُون بالغَيْبِ سواءٌ أَدَركْته عقولُهم أَم لم تُدرِكْه، والإِيمانُ بالغَيبِ مبنيٌّ على التَّسلِيمِ لله؛ لأَنَّ الغُيوبَ لا يُتَوصَّلُ إِليها بالعَقْلِ وإِنَّما طريقُها الإِخبارُ. أَمَّا الذي لا يؤمِنُ إِلاَّ بما

يُوافِقُ عقلَه، وما يُخالِفُ عقلَه رفضَه، فَهذا ليسَ بمؤمِنٍ؛ قال تعالَى عن هَؤلاءِ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٩]، وأَعظمُ منه ظُلماً وكُفراً الذي لا يُؤمِنُ بالغَيْبِ أَصلاً ولا يُصَدِّقُ إلا بما يَرى من المَحسُوسَاتِ، فهذا مُلحِدٌ معطِّلٌ كَافِرٌ باللهِ ورَسولِه ﷺ. وَالذي لا يُؤمِنُ بالغَيبِ لأَنَّ عقلَه لم يُدرِكْه هذا غيرُ مُؤمِنٍ ولم يسلِّم للهِ تعالَى ولِرسُولِه، والعقلُ له طَاقَةٌ محدودةٌ، وهناكَ أُمورٌ لا يُدرِكُها ولا يُطِيقُها، وإنَّما يدرِكُ بقَدْرِ طاقَتِهِ فقط.

الصِّفَةُ الثَّانِيةُ: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: الصَّلاةُ التي هي الرُّكْنُ الثَّانِي من أَركانِ الإسْلَامِ. وقال: ﴿وَيُقِيمُونَ﴾: ولم يقلْ ويُصَلُّونَ؛ لأَنَّه ليسَ المَقْصُودُ من الصَّلاةِ صُورَتَها، وإنَّما المَقْصُودُ إقامَتُها.

ومعنى إقامَتُها: الإتيانُ بها كما شرَعَ اللهُ سبحانَه وتعالَى بِشُروطِها وأَركانِها وَوَاجِباتِها وسُنَنِها، وهذه إقامةٌ ظَاهِرةٌ، ولابُدَّ مع ذَلِكَ من إِقَامَتِها باطناً، وذلِكَ بالخُشوعِ فيها وحُضورِ القلبِ.
فإِقَامَةُ الصَّلاةِ نَوعان:

١ ـ إِقامةٌ ظَاهِرةٌ، وذلِكَ بالإِتيانِ بشُروطِها وأَركانِها وواجِباتِها وسُنَنِها.

٢ ـ وإِقامةٌ بَاطِنةٌ، وهي حُضورُ القَلْبِ وخُشوعُهُ فيها، فإِنَّ مَنْ صلَّى بدونِ خُشُوعٍ ولا حُضورِ قلبٍ فَإِنَّه لا يكتَبُ له من الأَجرِ إلاَّ بمقدارِ ما عَقَلَ من صَلاتِهِ وخَشَعَ فيه، ولو أَقامها ظَاهِراً بِشُروطِها وأَركانِها، فإِنَّ المعوَّلَ عليه الإِقامَتانِ مَعاً.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾، والقُرآنُ ـ غالِباً ـ يذكُرُ الإِنفاقَ والصَّدَقةَ مع الصَّلاةِ؛ لأَنَّ الصَّلاةَ إِحسانٌ فيما بينَ العبدِ وبينَ ربِّه، والإِنفاقَ إِحسانٌ فيما بينَ العبدِ وبينَ النَّاسِ. فهُم يُحسِنونَ فيما بينَهُم وبينَ الله بإِقامِ الصَّلاةِ، ويُحسِنُونَ فيما بينَهُم وبينَ الخَلْقِ بالإِنفاقِ.

وقولُه: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾: «مِن»: تَبْعِيْضِيَّةٌ، أَي: بعضُ ما رزقْنَاهم؛ لأَنَّه ليسَ المطلوبُ أَنْ تُنْفِقَ كلَّ مالِكَ؛ بل المطلوبُ أَنكَ تُنفِقُ بعضَ مالِكَ، ولهذا عبَّر بمن التبعيضية.

و«ما»: مَوْصُولةٌ بمعنى الذي، وقوله: ﴿ رَزَقْنَٰهُمْ ﴾: فيه إِشارةٌ إِلى منَّةِ اللهِ علَيهِمْ، وأَنَّ هذا المَالَ لم يحصُلْ لهم بِحولِهم

وقوَّتِهم ومَعرِفتِهم، وإنما رزقَهُم اللهُ إيَّاه، فالفَضْلُ فيه للهِ سُبحانَه وتعالى.

﴿يُنفِقُونَ ۝٣﴾: الإنفاقُ في اللُّغةِ: الإخراجُ، سمِّي التصدُّق إنفاقاً؛ لأَنَّ الإنسانَ يُخرِجه من مالِه، يقالُ: نفقتِ الدَّابَّةُ إذا ماتتْ وخَرجتْ روحُها، وسُمِّيتْ النَّفقةُ نفقةً لأَنَّها تُخرجُ من المالِ، ومنْه النِّفَاقُ وهو الخروجُ من الإيمانِ. فمَعنَى ﴿يُنفِقُونَ ۝٣﴾: يُخرجونَ من أَموالِهم الصَّدَقَةَ الواجِبةَ كالزَّكاةِ والكَفَّارات، والنَّفقةِ على الزَّوجَةِ والأَولادِ والأَقارِبِ. ويُخرِجُونَ أَيضاً الصَّدَقةَ المستحبَّةَ، صَدَقَةَ التَّطوُّعِ، كالصَّدَقَةِ على المحْتاجِين وفي سَبِيلِ اللهِ سُبحانَه وتَعالى.

وقالَ: ﴿يُنفِقُونَ ۝٣﴾: ولم يَذكرِ المنفقَ عليه؛ ليَعمَّ كلَّ وجوهِ الإنفاقِ التي أَمرَ اللهُ جلَّ وعلا بالإنفَاق فيها.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: هذَا في الذين آمنُوا بالرَّسولِ ﷺ من أَهلِ الكتابِ؛ حيثُ آمنُوا بالكِتابَيْنِ، هَؤلاءِ يُعطِيهُم اللهُ أَجرَهم مرَّتينِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ . . .﴾ [القصص: ٥٣ ـ ٥٤] يؤتيهمُ اللهُ أجرَهم مرَّتين: أَجراً على الإيمانِ السَّابق، وأَجراً على الإيمانِ اللاحِقِ. وقال تعالى في آيةٍ أُخرى يُخاطِبُ هؤلاء المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤] يعني: القُرآنَ. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من الكُتبِ السَّابِقَةِ. فالذين أَدركُوا النَّبيَّ ﷺ وآمنُوا به كالنَّجاشِيِّ وعبدِ الله بنِ سَلاَم وغيرِهم من الذين آمَنُوا بالرسل السابقين، ثم آمنوا بمحمد ﷺ.

الصفة الخامسة: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾: الآخِرةُ: يومُ القِيامَةِ، سمِّيتِ الآخرة لأَنها بَعدَ الدُّنيا. والدُّنيا سَمِّيتْ بذلك لأَنَّها اليومُ الأدنى. وهذا الوصفُ دَاخِلٌ في الإيمانِ بالغَيبِ

المتقدِّم في قولِه: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، وإنما أَعادَ ذكرَه اهتِماماً وتأكيداً للإيمان بِهِ، ولأَنَّ مَنْ آمنَ باليومِ الآخِرِ استعدَّ له بالعَمَلِ الصَّالحِ والتَّوبَةِ من الأَعمالِ السَّيِّئَةِ.

والإِيمانُ باليومِ الآخِرِ هو أَحدُ أَركانِ الإِيمانِ الستَّةِ.

هذه خَمسةُ أَوصافٍ للصِّنْفِ الأَوَّلِ: الذين آمَنُوا بالقُرآنِ ظَاهِراً وبَاطِناً.

ثم بَيَّن جزاءَهُم سُبحانَه وتعالَى فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ هذا في الدُّنْيا، أي: يَسِيرونَ على طريقٍ صحيحٍ وَاضِحٍ لا اعوِجَاج فيه. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ يعني: في الآخِرةِ بالجنَّةِ. والفَلاحُ هو: الفوزُ والحُصولُ على الأَجرِ العَظيمِ. وحَصَرَ الفَلاحَ فيهم بقولِه: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾، وأَما غيرَهم فَلا فَلاحَ ولا صَلاحَ لهم. هذا القسم الأَوَّلُ.

القِسْمُ الثَّاني: الذين كَفَرُوا بالقُرآنِ ظَاهِراً وبَاطِناً، وفيهم آيتانِ تبدآنِ بقولِه تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ... ﴾ الكُفْرُ: عدمُ الإِيمانِ، والامتِناعُ من الدُّخولِ فيه. وهُو في الأَصلِ من الكَفر

وهو: السَّتْرُ، يُقال: كَفَرَ الشيءَ إذا سَترَه، وتكفِيرُ السَّيئَاتِ سَتْرُهَا وتَغْطِيتُها، ومحَوُها وإزالَتُها، وسُمِّي الزَّارِعُ كَافِراً؛ لأَنَّه يُغطِّي البُذورَ بالدَّفنِ في الأَرض، ومنه قولُه تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ...﴾ [الحديد: ٢٠]، أَي: الزُّراعَ.

والذِينَ لم يدخُلوا في الإِيمانِ ولم يُجِيبوا دَاعِيَ اللهِ، إنّما سُمُّوا كُفَّاراً؛ لأَنّهم سَتروا الحقَّ وأَخفَوه ولم يَقبَلُوه. ولأَنَّ كثيراً منهم كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

والكُفْرُ يكونُ بالتَّعطِيلِ وإِنكارِ الخَالِقِ جلَّ وعَلا، ويكونُ بالشِّرْكِ مع اللهِ سُبحانَه وتَعالى، ويكونُ بارتِكابِ نَاقِضٍ من نَواقِضِ الإِسْلَامِ، وهي كَثيرةٌ. فالكفرُ يَكُونُ بالجُحودِ، ويكونُ بالعِنَادِ، ويكونُ بالاسْتِكبَارِ، ويَكونُ بالنِّفَاقِ، ويكون بالقول وبالفعل وبالاعتقاد وبالشك. والكفرُ: أَنواعٌ يجمعُها «عَدَمُ الإِيمانِ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: أَبوا أَن يقبَلُوا هدى الله سُبحانَه وتعالَى، هَؤلاءِ لا حِيلةَ فيهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٦]؛ لأنَّهم لَمَّا عرفُوا الحقَّ أَولَ مَرَّةٍ ولم يَسْتَجيبُوا عاقبَهم اللهُ بِحِرْمَانِهم من الإيمانِ فلا يهتَدُون بعدَ ذلك أَبداً.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وخَتْمُ الشيءِ معناه: إغلاقُه بحيثُ لا يَدخلُ إليه شيءٌ ولا يَخرجُ منه شيءٌ. و﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أَغلقَها بالخاتَمِ، أَو بالخَتْمِ، فلا يَنْفُذُ إليها النُّورُ، ولا يَصِلُ إليها الإيمانُ؛ بِسَببِ إعراضِهم، كما قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فمن تبيَّن له الحقُّ وأَعرضَ عنه، عُوقِبَ بالحِرمانِ فلا يَقبَلُه بعدَ ذلك.

وما دامَ اللهُ خَتَم على قُلوبِهم وسَدَّ المنافِذَ التي تُوْصِلُ الخيرَ إليها فلا فَائِدةَ من دعوتِهم؛ بل ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: وخَتَم على سَمعِهم فلا يَسْمعُون سَمَاعَ قَبُولٍ واهْتِداءٍ وإنْ كانوا يَسْمَعُون الصَّوتَ بآذانِهم، لكن لا يَسْمَعُون سماعَ قَبُولٍ وانتِفَاعٍ، حرمهم اللهُ فائدةَ

الأَسماع ـ والعياذُ بالله ـ كما قَالَ سُبحانَه : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

قوله: ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ على أَبصارِهم خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿ غِشَٰوَةٌ ﴾ مبتدأٌ مُؤَخَّرٌ، وهي جُملةٌ مُسْتَأنفةٌ. والغِشَاوَةُ: الغِطَاءُ، أَي: جعل على أَبصارِهم غِطَاءً يَحُولُ بينَهم وبينَ الانتِفَاعِ بما يُشَاهِدُون من آياتِ اللهِ، فلا يُبْصِرُونَ إِبْصَارَ انتِفاعٍ: لا يَنْظُرونَ في آياتِ اللهِ ويَسْتفِيدُون من النَّظرِ فيها، وإِنَّما نَظرُهم كنظرِ البَهائِمِ تَنْظُرُ إِلى الأَشياءِ ولكن لا تُدرِكُ الحِكْمَةَ منها والسِّرَّ فيها. فحرَمهُمُ اللهُ نِعْمَةَ القُلوبِ، ونِعْمَةَ الأَسماعِ، ونِعْمَةَ الأَبْصَارِ، والسببُ هو: أَنهم كَفَرُوا ولم يَقبلُوا الحقَّ.

وفي هذا تَحذيرٌ عن الإِعراضِ عن الحقِّ لكلِّ مَنْ سَمِعَه؛ لأَنَّ ذلكَ الإِعراضَ سَببٌ لحرمانِه من الهِدايةِ، فَيظَلُّ مُغْلَقَ القلبِ مختوماً عليه كما حُرم هَؤلاءِ وخُتِمَ على قُلوبِهم.

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾: هذا جزاؤُهم في الآخِرةِ، عذابٌ لا يَعلم عِظَمَهُ إِلاَّ اللهُ سُبحانَه وتعالَى. هذا

القسم الثَّاني عاقبَهم اللهُ في الدُّنيا عُقُوبةً عَاجِلةً بِحرمانِهم من الانتِفاعِ بحواسِّهم، وعُقُوبَةً آجِلَةً في الآخِرَةِ بالعَذَابِ العَظِيم في النَّارِ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: الذين آمَنُوا بالقُرآنِ ظَاهِراً، وكَفَروا به بَاطِناً. وهَؤُلاءِ هم المُنَافِقُونَ، وهم شرٌّ ممَنْ قبلَهم، شرٌّ من الكُفَّارِ وأَخطرُ؛ لأَنَّ الكُفَّارَ يُعلمُ أَنَّهم كُفَّارٌ فيُؤخَذَ الحَذَرُ منهم، لكن هَؤُلاءِ لا يَعْلَمُ المُسلِمونَ أَنَّهم كُفّارٌ؛ لِسَلامَةِ ظَاهِرهم، واختِلاطهم بالمُسْلِمِينَ فيُحسِنُونَ الظَّنَّ بهم ولا يَحْذَرُونَهم، وهم يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ. فَخطَرُهُم أَشدُّ من خَطَرِ الكُفَّارِ، ولهذا أَنزلَ اللهُ فيهم ثَلاثَ عَشْرَةَ آيةً، من قولِه تعالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٨-٢٠]؛ وذلك لخطرِهم وقُبحِهم، وأَنَّهم أَقبحُ من الكُفَّارِ الأَصْلِيِّينَ، ولهذا قَالَ جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥] ﴿ ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ ﴾. أي: تَحتَ الكُفَّارِ وعَبَدَةِ الأَصْنَامِ. والعياذُ باللهِ.

والنِّفَاقُ هو: إظهارُ الخيرِ (كالإِيمانِ والصلاحِ) وإِخفاءُ

الشَّرِّ كالكفر والرياءِ في القَلْبِ.

وهو يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَين: نِفَاقٍ اعتِقَاديٍّ، ونِفَاقٍ عَمليٍّ.

أ ـ النِّفَاقُ الاعتِقَادِيُّ هو: إظهارُ الإيمانِ وإبطانُ الكُفْرِ. والمتَّصِفُ بهذا هو الذي يكون في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النَّارِ. والعِياذُ باللهِ.

ب ـ أَمَّا النِّفَاقُ العَمَليُّ فهو؛ الاتِّصَافُ بصفةٍ من صِفاتِ المُنافِقينَ، وهذا يكونُ من بَعضِ المُؤمِنين، فالمتَّصِفُ به مُؤْمِنٌ بَاطِناً وظَاهِراً، وهذا يُسمَّى نِفَاقاً أَصغرَ، ونِفَاقاً عَمليًّا. مِن ذلِكَ قولُه ﷺ: «آيةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1]، وفي رواية: «وإذا خَاصَمَ فَجَرَ»، وفي رواية: «وَإِذا عَاهَدَ غَدَرَ»[2]، فهذه الصِّفَاتُ إذا صَدَرَتْ من مُؤْمِنٍ فإِنَّهُ يكونُ عندَه نِفَاقٌ عَمَليٌّ يَنْقُصُ إيمَانَه، وقد يجرُّه ـ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة:
البخاري: كتاب الإيمان، باب (٢٤) رقم (٣٣)، [١/ ١٢١].
ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٢٥)، رقم (٥٩)، [١/ ٢٣٥].

(٢) هاتان جملتان من حديث أبي هريرة المتفق عليه: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً. . .» الحديث سيأتي تخريجه.

والعِياذُ باللهِ ـ إلى النِّفَاق الاعتِقَاديِّ. ولهذا خافه النبي ﷺ على أصحابه وكانَ الصَّحابَةُ يخافُون خَوْفاً شَدِيْداً مِن هذا النِّفَاق؛ لأَنَّ الوَاجِبَ على المُؤْمِن الصَّرَاحةُ في الحَقِّ، لأَنَّها إذا اجتمعت فيه دلت على تأصل النفاق العملي فيه الموجب للنفاق الاعتقادي، ولهذا قال ﷺ: «**أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً...**» فَلاَ يَكُونُ عندَه ظَاهِرٌ وبَاطِنٌ يخالفه ولا يتَّصِفُ بصِفَاتِ المُنَافِقِينَ: بالكَذِبِ، وإِخلافِ الوَعْدِ، وخِيانَةِ الأَمَانَةِ، والغَدْرِ بالعُهُودِ.

وقد قال ﷺ مُحذِّراً من صِفَاتِ النفاق: «**أَرْبعٌ مَنْ كُنَّ فيه كانَ مُنافِقاً خَالِصاً، ومَنْ كانتْ فيه واحدةٌ منهنَّ كانتْ فيه خَصْلَةٌ من النِّفَاقِ حتَّى يدعَها إذا اؤْتُمِنَ خانَ وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا عَاهدَ غَدَر وإذا خاصَم فجر**»(١). نَسأَلُ اللهَ العَافِيةِ. فالواجِبُ على المسلِمِ أَنْ يحذَرَ من النِّفاقِ، وأَنْ يَتجنَّبَ صِفَاتِ المنافِقينَ، ولا يَقُلْ: أَنَا مؤمنٌ على الإِطلاق؛ فالمؤمنُ قد يدخُلَ عليه شيءٌ من صِفَاتِ المُنَافِقين لنَقص إِيمانَه، ولكن ليقل أَنا مؤمن إن شاء الله.

---

(١) متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو:
البخاري: كتاب الإيمان باب(٢٤)، [١/ ١٢١].
ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٢٥)، رقم (٥٨) [١/ ٢٣٤].

ونحوها.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة:٨] أي: بأفواهِهم، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: في قُلوبِهم، إنما أَظهروا الإِيمانَ وأَخفوا ضدَّه وهو الكفرُ، ومَن لم يؤمنْ بقَلبِهِ فليسَ بمؤمنٍ.

٣ ـ مَتَى وَقَعَ النِّفَاقُ في الإِسْلاَمِ؟

يقولُ العلماء: إنَّ النِّفاق العقديَّ لم يقعْ في مكةَ؛ لأَنَّ المُسلِمينَ كانُوا مُستضعَفِينَ في مكةَ، فلا يُسْلِمُ في مكة إلا صَادِقُ الإِيمانِ؛ لأَنَّه بإِسْلامِه معرَّضٌ للفتن والاضْطِهادِ. فليسَ ثمَّ حاجةٌ لأَنْ يُنافِقَ. وكَذَلك في أَوَّلِ الهجرة ما حَصَلَ نفاقٌ، لكن لَمَّا جَاءَتْ واقِعَةُ بدرٍ في السَّنَةِ الثَّانِيةِ من الهِجْرةِ، وانْتَصَرَ المُسْلِمونَ فيها، وقَوِيَتْ شَوْكَتُهم، رأى الكُفَّارُ الذين يَعِيشُون في المدِينةِ أَنَّ استمرارَهم على كُفْرِهم يُعرِّضُهم للخَطَرِ، فلَم يسَعْهُم إلاَّ أَنْ يَقبَلُوا الإِسْلامَ ظَاهِراً لأَجلِ أَنْ يَعِيشُوا مع النَّاسِ، وتُحقَنَ دماؤُهم، وما آمَنُوا بقلوبِهم، ولكنْ أَظهروا الإِيمانَ حيلةٌ، وحِفْظاً لِمصَالِحِهم.

قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [البقرة: ٩] الخِدَاعُ، والمُخادَعةُ: أَنْ يُظهرَ الإِنْسَانُ خِلاَفَ ما يُبْطِنُ. وقَصْدَ المنَافِقين من مسلَكِهم هذَا المخَادَعةُ، ولهذا قَالَ الله تَعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، واللهُ جلَّ وعَلا لا يُخدَعُ.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي: ويخادِعُون الذين آمَنُوا.

قوله: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾: أَي: عملُهم هذَا إِنَّما ضَررُه على أَنفسِهم؛ لأَنَّ الواجِبَ على الإِنْسانِ أَنْ ينصحَ لنفسِه، وأَنْ يُنْقِذَها من عَذَابِ اللهِ. لكنَّ المُنافِقِين خَدَعُوا أَنفسَهم؛ حيثُ عرَّضُوهَا لغَضَبِ اللهِ سبحانه وتعالَى.

قوله؛ ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾: أي: وما يَدْرُون أَنَّ عملَهم هذا سَيَنْتَكِسُ علَيهم.

قوله تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... ﴾ [البقرة: ١٠] هَذَا هو سَببُ النِّفَاقِ: المرضُ الذي في قُلوبِهم. والقَلْبُ يَمْرَضُ، ومَرَضُه أَشدُّ من مَرَضِ الجِسْمِ، وذَكرَ العلماءُ أَنَّ مرضَ القلبِ نَوعانِ: مَرَضُ شَهْوَةٍ، ومَرَضُ شُبْهَةٍ.

١ - مَرَضُ الشُّبهةِ: يكونُ بالشُّكوكِ والكُفْرِ والنِّفاقِ وسُوءِ الظَّنِّ باللهِ عزَّ وجلَّ، وسُوءِ الظَّنِّ بالمُسلِمينَ.

٢ - مَرَضَ الشَّهْوةِ: أَنْ يُحِبَّ الشَّهَوَاتِ المحرَّمةَ، مِثْلَ: الزِّنَا، والسَّرِقَةِ، وشُرْبِ الخَمْرِ، والغِيْبَةِ، والنَّميمةِ، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ...﴾ [الأحزاب: ٣٢] أَيْ: مرضُ الشَّهوةِ. والعِياذُ باللهِ.

ومَرَضُ الشُّبهةِ أَشدُّ من مرضِ الشَّهوةِ؛ لأَنَّ مرضَ الشُّبهةِ لا يتُوبُ صاحِبُه في الغَالب، بخلافِ مرضِ الشَّهوةِ فقد يتُوبُ صَاحِبُه، ويُصلِحُ عملَه.

فقولُه: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي مرضُ الشُّبهةِ، ومرضُ الشَّهوةِ، كِلا المَرَضين فيها.

قولُه: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: عُقُوبةً لهم؛ حيثُ إِنَّهم كَفَرُوا بآياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى. وقُلوبُهم فيها المرضُ من قبل، فلما كفرتْ بآياتِ اللهِ زادَ مرضُها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]؛ لأنهم أصبحوا يستهزؤون بها، ويسخرون منها، ولا يؤمنون بها فزاد مرضُهم ـ والعِياذُ باللهِ ـ على مرضٍ سَابقٍ، فَتضَاعفَ عليهم المرضُ.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: هَذه عقوبةٌ ثانية، عَذابٌ في الآخِرَةِ وعَذابٌ في الدُّنيا. و﴿أَلِيمٌ﴾: بمعنى: مُؤلمٍ مُوجعٍ، وبيَّن سببَ هذا العَذابِ بقولِه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: في إيمانِهم. كيفَ يَكذِبُون؟ لأنَّهم أَظهَروا الإيمانَ وأَبطَنُوا الكفرَ. وهَذا كذبٌ، بل هَذا أَعظمِ الكَذِبِ. وفي قراءة: (بما كانوا يُكَذِّبون) أيْ: يكذِّبُون بآياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى.

ومن صفاتهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ [البقرة: ١١] أي: إذا نُهوا عن النِّفاقِ؛ لأنَّ النِّفاقَ والكُفرَ والمعاصِي إفسادٌ في الأَرضِ؛ لأنَّها تُسبِّبُ النَّكباتِ والعُقوبَاتِ، تُسَبِّبُ حَبْسَ الأَمطارِ وغَوْرَ المياهِ، ويُبْسَ الأَشجارِ وانقِطَاعَ الثِّمارِ، تُسَبِّبُ اختِلال الأَمْنِ وانقِطَاعَ السُّبلِ؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فالكفرُ والمَعَاصي والنِّفاقُ إفسادٌ في الأَرْضِ، والطَّاعَةُ والإيمانُ والعَملُ الصَّالِحُ إصلاحٌ في الأَرضِ. ولهذا قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا . . .﴾ [الأعراف: ٥٦] أصلَحها الله بالوحي والنُّبوَّةِ والإيمانِ، فَالذِي يعصِي اللهَ ويكفرُ به مفسدٌ في الأَرضِ.

فمعنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: اتركُوا ما يكون سبب لفسادها وهو النِّفاقَ، وآمِنوا باللهِ ظَاهِراً وبَاطِناً كما آمَن النَّاسُ، أي الصحابة رضي الله عنهم.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾: وهذا من انتِكاسِ الفِطَرِ، يَعدُّون النِّفَاقَ والكفرَ إِصْلَاحاً في الأَرضِ!!

فيقولون: إِنَّما نحنُ بعملِنا هذا الذي هُوَ النِّفاقُ والكفرُ مُصلِحونَ، مِن أَجلِ أَنْ نعِيشَ في هَذهِ الدُّنيا، ويَندفِعَ عنَّا القَتلُ. وهذا بزعمهم إِصلاحٌ!!

فقال اللهُ تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ عَكَسَ اللهُ عليهم دعواهُم، وحَصَرَ الإفسادَ فيهم، فهم وحدَهم المُفسِدونَ بِنفاقِهم وكُفرِهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ لا يَدْرُون أَنَّ هذا إِفسادٌ، بل يَعتقِدونَهُ إِصْلاحاً.

واليومَ أَصحابُ الشَّهواتِ وأَصحابُ المَطامِعِ الخَبيثةِ، يُرِيدُونَ أَنْ يحوِّلُوا المُسلِمينَ إِلى المَذَاهِبِ البَاطِلةِ، وإِلى تعطيلِ

الشَّرِيعةِ، وإلى الجرَائِم وفَسَادِ الأَخلاقِ، ويَقُولونَ: هذَا إِصْلاحٌ! ويُسمُّون الإِيمانَ والتمسُّكَ بالدِّينَ جَفاءً وتحجُّراً، ورَجعِيَّةً وتَأَخُّراً! إلى آخرِ ما يقُولُون. ما أَشبه الليلةَ بالبَارِحةِ! يُرِيدُونَ أَن يُحَوِّلُوا الحكمَ بما أَنزلَ اللهُ إلى الحُكمِ بالقَانُونِ، ويَقُولُون: هذا إِصْلاحٌ! يُرِيدُون أَنْ يخلَعُوا الحِجابَ عن النِّساءِ ويَتْرُكُوهُنَّ سَافراتٍ في الشَّوارِعِ، ويتولَّينَ أَعمالَ الرِّجالِ، ويُسافِرْنَ إلى أَيِّ محلٍّ، ويقولون: هذا إِصلاحٌ! هذا رُقيٌّ وتقدُّمٌ! هذا تحضُّرٌ! وهذا عملُ الأُممِ الرَّاقيةِ! أَمَّا أَن تُعارِضُوا هذا الأَمرَ فهذا هُو الإِفسادُ بزعمِهم!! هذا هُو نفسُ الذي ذكَره اللهُ عن المُنافِقينَ في هذه السورة، وفي قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

وهَؤُلاءِ الذين يَقُولونَ هَذه المقالاتِ الآنَ هم مُنافِقُون؛ لأَنَّهم يُظهِرون الإِيمانَ ويُخفُون في قُلوبِهم مُحاربةَ اللهِ. نسأَلُ اللهَ العَافِيةَ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] آمِنوا باللهِ ورسولِه كإِيمانِ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم،

سمَّاهم اللهُ النَّاسَ؛ لأَنَّهم هم النَّاسُ في الحَقِيقَةِ.

﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ ﴾: يُسمُّونَ الصَّحابةَ: السفهاءَ! لماذا؟ لأَنَّهم آمَنُوا والتزَمُوا بدينِ اللهِ: يُصَلُّون ويَصُومُونَ، ويحجبونَ نِسَاءَهم، ويَتجنَّبونَ الحَرامَ والرِّبا والغِشَّ في المُعَامَلاتِ، ويَتجنَّبونَ الاحتِيالَ والمكرَ والخَدِيعَةَ. والمنافقون يَقُولُون: هَؤلاءِ سُفَهَاءُ!!

والسُّفهَاءُ جمعُ سَفيهٍ، والسَّفِيهُ هو: ناقِصُ العقلِ، خَفِيفُ العقلِ، أَصلُه من السَّفَاهَةِ، وهي خِفَّةُ العَقْلِ، فهم يَصِفُونَ الصَّحابةَ بخفَّةِ العَقْلِ؛ لأَنَّهم ليس عندَهم مكرٌ وخَدِيعةٌ، ونِفَاقٌ وتملُّقٌ، واحتِيالٌ على أَوامِرِ اللهِ تَعالَى ونَواهِيه. فَهؤلاءِ السفهاءُ عندَهم!!

قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾: حَصَرَ السَّفَاهَةَ فيهم هم؛ لأَنَّهم الذين ضَرُّوا أَنفسَهم، والسَّفِيهُ هو الذي يضرُّ نفسَه، فَهؤلاءِ هم ضَرُّوا أَنفسَهم بالنِّفاقِ والخَدِيعةِ والمكرِ. فأَيُّ الفَرِيقَينِ سَفِيهٌ؟ الذِينَ آمَنُوا باللهِ ورسولِه وصَلَحُوا وأَصْلَحُوا، أَم الذِين نَافَقُوا ولم يُؤْمِنُوا؟ لا شَكَّ أَنَّ الذي لم يُؤْمِنْ هو السَّفيهُ. فالمُنافِقُون هم السُّفهاءُ.

قوله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾: لأَنَّ الله تعالَى طَمَسَ على قُلوبِهم فلا يُميِّزونَ بينَ الحَقِّ والبَاطِلِ، والسَّفاهَةِ والرُّشدِ، يَعتقِدونَ الرُّشدَ سَفاهَةً، والسَّفَاهةَ رُشْداً؛ لأَنَّ عقولَهم مَرِضَتْ، وقُلوبَهم فَسَدَتْ فلا تميِّزُ بينَ الحقِّ والبَاطِلِ. هَذه هِي بَعضُ صِفاتِهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤]. ثم ذكر تعالى مِن صِفَاتِ المُنافِقينَ: استِعمالُ الوَجْهينِ: فيأْتُون المُؤْمِنينَ بوَجْهٍ، ويأْتُون الكُفَّارَ بوجهٍ، ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ أي أَظهروا الإِيمانَ: صَلُّوا وصَامُوا، وعَمِلُوا الأَعمالَ التي أَمر بها الإِسْلامُ، يَفعَلُون هذا في الظَّاهِرِ من أَجلِ خَدِيْعةِ المُؤْمِنينَ، ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾: خَلوا إلى مَرَدَةِ الكُفَّارِ، والشَّيْطانُ يوصَفُ به الجِنُّ، ويوصَفُ به الإِنسُ، وشَيَاطِينُ الإِنْسِ أَشدُّ ضَرَراً، فالمرادُ بِشَياطِينِهم: مَرَدةُ الكُفَّارِ من المُشْرِكِيْنَ، واليَهودِ، والنَّصارَى، إِذا خَلَوْا إِليهم ولم يكنْ معهم أَحدٌ من أَهلِ الإِيمانِ، صَرَّحُوا بالحَقِيقةِ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي: ما فارقناكم، إِنَّا على عَقِيدتِكُم، لكنْ خَدَعْنَا هَؤلاءِ، وأَظهرْنَا لهم الإِيمانَ استِهزاءً،

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ مُسْتِهزِءونَ بإظهارِ إيمانِنا أمامَهم، نَسخَرُ بهم، ونَستهزِىءُ بهم، ونخدَعُهم، وهم يُصَدِّقُوننا.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥] أي: يَستَدرِجُهم ويُمهِلُهم ويُعطِيهم شَيئاً من الخيرِ خَدِيعةً لهم، ثم يُحِلُّ بهم العُقوبَة الرَّادِعةَ هذا هو الاستهزاء بهم.

والاستِهزاءُ من الصِّفاتِ التي لا تُطْلَقُ على اللهِ إلاَّ في مَقامِ المُقابَلةِ، فاللهُ لا يُوصَفُ بالاستِهزاءِ، لكنْ يُوصَفُ بأنَّه سُبحانه حَكَمٌ عَدْلٌ، يُوصِلُ الجزاءَ إلى مَن يَستحِقُّه على وجه لا يشعر به، ومن ذلكَ أَنَّ المُنافِقينَ يُعطَونَ شَيئاً مما أَرادَوا في الدُّنْيا، من حَقْنِ دِمائهم، وحِمايةِ أموالِهم. لكنْ لهم العَاقِبةُ الوَخِيمةُ.

كذلك في الآخِرةِ يُعْطَونَ شَيئاً من النُّورِ في بداية الأَمرِ، ثم يُسْلَبُ منهم فَيُصبِحونَ في ظُلمةٍ، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣]، يَنْطَفِىءُ نُورُهم. والعِياذُ باللهِ. ولهذا يقولُ المُؤمنون: ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨]، إذا انطفأَ نورُ المُنافِقينَ خَافَ

المُؤمِنونَ فدَعَوا ربَّهم بإتمامِ نُورِهم.

قولُه: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾: يَسْتدرِجُهم ويَزِيدُهم، فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ، ولا يَفضَحُ أمرَهم، وذلك من أَجلِ أَنْ يَسْتَمرِءوا النِّفاقَ. ويَسْتَسِيغُوه. وَالطُّغيانُ هو: الخُروجُ عن الحقِّ.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي: لايَهتدُون أَبداً، والعَمَهُ هو: الضَّلالُ الشَّديدُ. والعِياذُ بالله. ثم ذَكرَ لهَؤلاءِ المُنافِقين مَثَلَينِ؛ لِتوضِيح حَالِهم للسَّامعِ:

المثلُ الأَوَّلُ ذكرَه بقولِه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧]، شبَّههم بمَنْ كانَ في صَحراءَ مُظْلِمةٍ، فاستَوْقَدوا ناراً يعني: أَوقَدُوا النَّارَ، أَو طَلَبُوا من المُؤمِنينَ ناراً لِيوقِدُوهَا، فَأَوقَدُوهَا وانتَفعوا بها في أَوَّلِ الأَمرِ، ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ ورأى ما حولَه وتبصَّرَ، انطَفأَتِ النَّارُ فَجْأَةً ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ وهذَا من استِهزاءِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى بِهم.

المَثَلُ الثَّاني: مَثَلُ إنسانٍ أَصابَه صَيِّبٌ، أَي: مطرٌ فيهِ

ظُلُماتٌ: ظُلمةُ اللَّيلِ، وظلمةُ السَّحابِ، وظُلمةُ المَطَرِ، فهو واقعٌ في ظُلُماتٍ. هذا مَثَلُ المُنافِقينَ، هم في ظُلماتٍ: ظُلمةُ الكُفْرِ، وظُلمةُ النِّفاقِ، وظُلمةُ الشَّكِّ، وظُلماتٌ كثيرةٌ. وهَذا هُو المُرادُ بقولِه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: يعني بالسماءِ: السَّحابَ. ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ [البقرة: ١٩]، فيه رُعودٌ شَدِيدةٌ، وفيه بَرقٌ شَديدٌ، فهم وقَعُوا في رُعبٍ شَدِيدٍ: ظُلماتٌ لا يُبصِرُون مَعَها، ورَعدٌ شَديدٌ قَاصِفٌ يَخْشَونَ أَنْ يَصْعَقَهم، والعياذُ باللهِ، وبرقٌ شَديدٌ خَاطِفٌ يَخْطَفُ أَبصارَهُم.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]، إذا أَضاءَ الأَرْضَ مَشَوا فيه يَنظُرونَ الطَّريقَ. ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾: يعني: وقَفُوا؛ لأَنَّهم لا يُبصِرونَ.

هذَا مَثَل المُنافِق: إِنْ جاءَه من الإِسْلامِ خيرٌ عَاجِلٌ تمسَّكَ به، وإِن أَصابتْه فِتنةٌ، أَو أَصابه ضُرٌّ أَو مِحنةٌ، فإِنَّه يَتوقَّفُ ويشكُّ في الإِسْلامِ.

فمعنى قوله: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾: إِذا حَصَلَ لهم محنٌ

وشَدائِدُ وامتِحانٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّهم يشكُّونَ في هَذا الإسْلَامِ، ويقوُلونَ: هذا ما جاءَنا بخيرٍ. فمثلُهم كمثَلِ الذي أَصابَه الصَّيِّبُ في الليلِ، وحَصَلَ عندَه هذهِ الإفزاعاتُ، إذا أَضاءَ له البرقُ مَشَى، وإذا انقطعَ البرقُ وقَفَ؛ لأَنَّه لا يدرِي أَينَ يذهَبُ، وهؤلاءِ مثلُه، إذا جاءَهم من الإسْلام خيرٌ استمرُّوا فيه، كمَا في قولِه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةَۚ ﴾ [الحج: ١١] فمدَّعِي الإيمانِ لابُدَّ أَنْ يُمْتَحَنَ في هذه الدُّنيا؛ ليَظهرَ صِدْقُ إيمانِه من كَذِبهِ، فالذي إيمانُه غيرُ صَحِيحٍ، يَنقلِبُ على عَقِبيْهِ ويكفُرُ، كالمُنافِقِ. وأَمَّا الصَّادِقُ الإيمانِ فهذَا ثابتٌ: إن أَصَابَه خيرٌ شَكَرَ، وإنْ أَصَابَه ضُرٌّ صَبرَ، هَذا هُو المُؤْمِنُ. أَمَّا المُنافِقُ فهو بالعَكْسِ: إنْ أَصابَه خيرٌ أَظهر الاطمِئْنانَ، وإنْ أَصابتْه فِتنةٌ، كَفَر باللهِ ـ والعِياذُ باللهِ ـ وظهرَ ما عندَه من المَكْنُونِ، ظهرَ النِّفاقُ الذِي في قَلْبهِ.

واللهُ سبحانَه أَنزلَ في المُنافِقينَ كَثِيراً من الآياتِ، أَنزلَ فيهم سُورةَ التَّوبةِ التي تسمَّى الفَاضِحةَ؛ لأَنَّها فَضَحتْهُم، وسُورةَ «إذا جاءَكَ المُنافِقونَ» إضَافةً إلى ما جاءَ عنهم في سُورةِ النِّساءِ،

وآلِ عمرانَ، والعَنكبوتِ، وغيرِها، وكثيرٌ من آياتِ القُرآن فيها بيانُ حالِ المُنافِقينَ، وذلكَ لخطرِهمْ على المُسلِمينَ، ولأَجلِ أَنْ يَحذَرَهُم المُسْلِمُون. وما أَكثرهُم ـ لا كثَّرهم اللهُ ـ الآنَ، يَعِيشُون بينَنَا، ويَبثُّونَ سمومَهم وشرَّهم، وهم أُناسٌ من بني جلدِتنا، ويتكلَّمون بأَلسنتنا، وهم يتسمَّونَ بالإِسْلامِ وبالإِيمانِ. نسأَلُ اللهَ العَافِيةَ.



الدَّرْسُ الرَّابعُ
الإِسْلامُ العام في القُرآنِ الكَرِيمِ

١ ـ معنى الإسلام :

الإِسْلامُ يُرادُ به: ما يُقابِلُ الشِّركَ والكُفْرَ والأَدْيَانَ البَاطِلَة، فإذا قِيلَ: دينُ الإِسْلامِ فالمرادُ بِه: ما يُقابِلُ الأَديَانَ الأُخرى البَاطِلَةَ.

وتَعرِيفُه في اللُّغةِ: الانْقِيادُ، يُقَالُ: أَسلمَ واسْتسْلَم إِذا انقَادَ.

وفي الشَّرْعِ هو: «الاسْتِسْلامُ للهِ بالتَّوحِيدِ، والانقِيادُ له بالطَّاعَةِ، والخُلوصُ من الشِّركِ وأَهلِهِ».

فإِنَّ المُسلِمَ لا يَجْمَعُ بين الاستِسْلامِ للهِ ولِغيرِه. ولهذا مَنِ استسلمَ للهِ ولغيرِه فهو مُشْرِكٌ، ومَنْ أَبى أَنْ يَستَسلِمَ للهِ فهو مُستكبِرٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، هذا هو الإِسْلامُ: الإخلاصُ للهِ بالتَّوحِيدِ، والانقيادُ له بالطَّاعَةِ، والبَرَاءةُ من الشِّرْكِ وأَهلِهِ، يعني: أَهلَ الشِّرْكِ فَيُبغِضُهم ويُعادِيهم للهِ عزَّ وجلَّ.

وَهُو بهذَا التَّعْرِيْفِ يَشمَلُ جَمِيعَ دِينِ الرُّسلِ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فالرُّسُل كلُّهم على دِينِ الإِسْلامِ، كلُّهم مُستَسلِمونَ للهِ بالتَّوحِيدِ، مُنقَادُونَ له بالطَّاعةِ، مُخلِصُون له العِبادةَ، مُتجنِّبونَ للشِّركِ ومُعادُون لأَهلِهِ. فكلُّهم مُسْلِمُونَ، ودِينهُم هو الإِسْلامَ، وإِنِ اختلفَتْ شَرائِعُهم، فإِنَّ الإِسْلامَ هَو: الانقِيادُ لله بِعبادَتِه، حَسَب ما شَرَعهُ في كلِّ وقتٍ. والشَّرائِعُ وإِن اختَلَفتْ حَسَبَ حِكْمَةِ اللهِ، وحَسَبَ مَصَالِحِ العِبادِ، إلاَّ أَنَّها كلَّها للهِ عزَّ وجلَّ، وكلُّها من تَشْرِيعِه.

ولهَذا وصَفَ اللهُ تعالَى نُوحاً بأَنَّه مُسْلِمٌ؛ قال تعالَى: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١-٧٢]، أي: المُستَسْلِمينَ للهِ، والمُنقادِينَ له بالطَّاعةِ.

وقالَ عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

وحكى عنه وعن إسْماعيلَ أنهما قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

وحكى عن يَعقوبَ أنه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]، أي: مُخلِصُونَ له العِبادَةَ، مُنقادُون له بالطَّاعةِ.

وحكى عن مُوسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]، أي: مُنقادِينَ للهِ عزَّ وجلَّ، مُوحِّدينَ للهِ مُخلِصينَ له العِبادَةَ.

وقال عن بَنِي إسرائيلَ لمَّا ذكر التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا

﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿أَسۡلَمُواْ﴾ أي: انقَادُوا للهِ.

إذاً فالإِسْلامُ بمعناه العام يُطلَقُ ويُرادُ به: دينُ جَمِيعِ الأَنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وإنْ اختلفتْ شَرائِعُهم، فالإِسْلَامُ هو: عِبادةُ اللهِ بما شَرع في كلِّ وقتٍ بحسبِه.

فَعِبادةُ اللهِ بِشرِيعَةِ التَّوراةِ، وعِبَادَةُ اللهِ بِشريعةِ الإِنْجيلِ، وعِبَادةُ اللهِ بكلِّ شَرِيعةٍ شَرَعَها سُبحانَه وتعالى لأَنْبيائِهِ كلُّ هذا إسلامٌ، وإنما تعددتِ الشرائعُ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، لكنْ إذا نُسِخَ شيءٌ من هَذهِ الشَّرائِعِ فإنَّ المنسوخَ لا يَجوزُ العملُ به، ومَنْ عَمِلَ به لا يكونُ مُسلِماً، وإنَّما يكونُ مُسْلِماً إذا عَمِلَ بالنَّاسِخِ؛ لأَنَّ العبدَ مأْمورٌ ومنهيٌّ، وهو يَتَّبِعُ ما أَمرَ اللهُ به بالامتِثالِ وما نَهى عَنْه بالاجْتِنَابِ، هذا هو العَبْدُ. أَمَّا الذي يتَّبِعُ هَواهُ ويَتَّبِعُ رَغْبتَه، ويَتعصَّبُ لما هُو عليه أَو عليه آباؤُهُ، وإنْ كانَ في الأَصْلِ مَشْروعاً ثم نُسِخَ، فَهذَا لا يَكونُ عَبداً للهِ ولا يكونُ مُسلِماً، فإنَّه إذا نُسِخَ انتهَى العملُ به، فمَن بَقِيَ على الدِّينِ المنْسُوخِ فإنَّه يكونُ غيرَ مُسلِمٍ، بَل لابُدَّ أَنْ يَنتقِلَ إلى الدِّين النَّاسِخِ.

خذْ مثلاً لذلكَ: كَانتِ الصَّلاةُ في أَوَّلِ الإِسْلَامِ إِلى بَيتِ المَقْدِسِ، وكانَ النبيُّ ﷺ والمُسلِمونَ يَستَقبِلونَ بيتَ المقدِس بأَمرِ اللهِ، وفِعلُهم هذا إِسلامٌ، فلَمَّا نُسخَتِ القِبلَةُ وحُوِّلتْ إِلى الكَعْبةِ(١)، صارَ حُكمُ الإِسلامِ هو التوجُّهُ إِلى الكَعبةِ، فمَن بَقِيَ مُتوجِّهاً إِلى بَيتِ المَقْدِسِ لم يكنْ مُسْلِماً بعد النسخ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فالدِّينُ اتباعٌ للرَّسولِ، وليس هو تَعصُّبٌ للهَوى، ولهذا لَمَّا نُسختِ القِبلَةُ كانَ أُناسٌ يُصلُّونَ العَصْرَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ على الأَصلِ، فجاءَهم مُخبِرٌ فأَخبرهم أَنَّ القِبْلَةَ حُوِّلَتْ إِلى الكَعْبةِ المشرَّفَةِ، فاستَدارُوا وَهُم في الصَّلاةِ(٢). فكانَ أَوَّلُ الصَّلاةِ إِلى بَيتِ المَقدِسِ، وآخِرُ الصَّلاةِ

---

(١) كما في حديث البراء المتفق عليه:
البخاري: كتاب التفسير، سورة البقرة آية (١٤٨) باب (١٨)، رقم(٤٤٩٢)، [٨/ ٢١٨].
ومسلم: كتاب المساجد، باب (٢)، رقم(٥٢٥)، [٣/ ١٣].

(٢) كما في حديث ابن عمر المتفق عليه:
البخاري: كتاب الصلاة، باب (٣٢)، رقم(٤٠٣)، [١/ ٦٥٥].
ومسلم: كتاب المساجد، باب (٢)، رقم (٥٢٦) [٣/ ١٣].

إلى الكَعبةِ. لأنَّهم صَلُّوا أَوَّلَ الصَّلاةِ إلى بَيتِ المَقْدِسِ بناءً على الأَصْلِ حيثُ لم يبلُغْهم خبرُ تغيير القبلةِ، ولمَّا بلغَهُم الخبرُ انقَادُوا وتحوَّلوا إلى الكَعبةِ وهمْ في الصَّلاةِ، ولو اسْتمرُّوا بعدَ الخبرِ إلى بَيتِ المَقْدِسِ بطلتْ صَلاتُهم. هَذَا هو الاسْتِسْلامُ والانقِيادُ للهِ جلَّ وعلا.

فاللهُ جلَّ وعَلا يَشرَعُ في كلِّ وقتٍ ما تَقتضِيهِ المصْلحةُ لِعبادِهِ تبعاً لِحكمتِه سُبحانَه وتَعالى. وعَليهِمُ الامتثالُ؛ لأَنَّ السَّعَادَةَ كلَّ السَّعادةِ في اتباعِ ما أَمرَ اللهُ تعالَى به، فالمُسلِمُ يَدورُ حيثُما دارَ شَرْعُ اللهِ سُبحانَه وتعالَى. أَمَّا الذي يَتَّبِعُ هَواهُ ويَتَّبِعُ رغبتَه فهَذا عبدٌ لهَواهُ، وليسَ عبداً للهِ سُبحانَه وتعَالَى؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

هَذا هُو أَصلُ الإِسْلامِ، وهو دينُ جَميعِ الأَنْبياءِ عَليهِمُ الصَّلاة والسَّلامُ، ثمَّ لمَّا بُعِثَ محمدٌ ﷺ صَارَ الإِسلامُ هو ما جاءَ به، ونُسِخَتِ الأَديانُ السَّابِقَةُ. فَالإِسْلامُ ناسخٌ لما قبلَه، فمَن بَقِيَ على اليَهودِيَّةِ أَوالنَّصرانِيَّةِ فإِنَّه يَكونُ كَافِراً؛ لأَنَّه بَقِيَ على دينٍ قد نُسِخَ، وقد أُمِرَ النَّاسُ جَمِيعاً باتباعِ هَذَا الرَّسُولِ ﷺ وما جاءَ به من الشَّرائِعِ الإِسْلامِيَّةِ، فلا يَجُوزُ لليَهودِ أَنْ يَبْقَوا على اليَهودِيَّةِ، ولا

يَجوزُ للنَّصارى أَنْ يَبْقَوا عَلَى النَّصرانِيَّةِ، ولهذا قالَ ﷺ: «لو كانَ مُوْسَى حياً ما وَسِعَهُ إلاَّ اتباعِي»(١)؛ لأنَّ اللهَ أخذَ الميثاقَ على الرُّسلِ وعَلَى الأَنبياءِ جَمِيعاً إذا بُعِثَ محمدٌ ﷺ ومنهم أَحدٌ موجودٌ أَن يَتَّبِعَه؛ قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٣] ولِذَلِكَ إِذا نَزَلَ المسِيحُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قَبلَ قِيامِ السَّاعَةِ يكونُ تابِعاً لمحمَّدٍ ﷺ يحكم بِشَرِيعةِ الإِسْلامِ.

وبَعْدَ بعثةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَجِبُ على جَمِيعِ الثَّقَلين: الإِنسِ والجنِّ اتباعُه إلى أَن تقومَ السَّاعَةُ، فمَنْ بَقِيَ على دِينٍ غير دينِ محمَّدٍ ﷺ فإنَّه يكونُ كَافِراً، وإنْ كان الدِّينُ الذي عليه مَشْروعاً في الأَصْلِ؛ لأنَّهُ قد نُسِخَ وأُمِرَ النَّاسُ باتباعِ هذا الرَّسولِ

---

(١) أخرجه أحمد من حديث جابر بن عبدالله: برقم (١٥٢٢٣)، [٥/ ٢٤٣].

ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولهذا كَاتَبَ النبيُّ ﷺ مُلوكَ الدُّنيا يدعُوهم إلى الإسْلَامِ، فكتبَ إلى كِسْرى، وكَتَبَ إلى قَيْصَرِ، وغيرِهم[(١)]، وكان يقولُ لأحدهم: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤتِكَ اللهُ أَجرك مرتين، فإِنْ تولَّيتَ فإِنَّما عليك إِثمُ الأَريسِيِّيْنَ»[(٢)] يَعني: تتَحمَّلُون آثامَ مَنْ تَبِعَكُم من الفَلاحِينَ، ومن العَامَّةِ. ولهذا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يَسْمَعُ بي أحد مِن هَذِه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ولاَ نَصْرَانيٌّ ثم يموتُ ولم يؤمنْ بي إلاَّ دخلَ النَّارَ»[(٣)].

وبِهذَا يَبْطُلُ هذا الهُراءُ الذي يُطَنْطِنُونَ به الآنَ من القَولِ بحُرِّيَّة الاعتِقَادِ، أَو حُرِّيَّةِ الأَديانِ، فهذَا القول كفرٌ والعياذُ باللهِ. فليسَ هناكَ إلاَّ اتباعُ هذَا الرَّسُولِ ﷺ، لا نجاةَ إلا باتباعِه.

---

(١) كما في حديث أنس عند مسلم: كتاب الجهاد، باب (٢٧)، رقم (١٧٧٤)، [٦/ ٣٢٩].

(٢) كما في حديث أبي سفيان المتفق عليه في قصة هرقل.
البخاري: كتاب بدء الوحي، باب (٦)، رقم (٧)، [١/ ٤٣].
ومسلم: كتاب الجهاد، باب (٢٦)، رقم (١٧٧٣)، [٦/ ٣٢٢].

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب (٧٠)، رقم (١٥٣)، [١/ ٣٦٤].

وكذلِكَ ما يُلَفِّقُونَه من الحِوارِ والتَّقَارُبِ بَيْنَ الأَديانِ! وهذا كلامٌ باطِلٌ، والعياذُ باللهِ، وكيف يُحاوَرُ بَيْنَ دينٍ باطِلٍ مَنْسُوخٍ ودينٍ حقٍّ، وهو دينُ الإِسْلامِ؟! يُحاوَرُ بينَ الكُفْرِ والإِسْلَامِ، أَو يُسَوَّى بينَ الكُفْرِ والإِسْلامِ!! ويقالُ: هذه أَديانٌ سَماويَّةٌ! نعم، كانت في الأَصلِ سَمَاوِيَّةً، لكن بَعدَ بعثةِ الرَّسُولِ ﷺ تحوَّلَ الأَمرُ إِلى ما جاءَ به الرَّسُولُ ﷺ، فمَنْ بَقِيَ على دِينٍ غيرَ الدِّينِ الذي جاءَ به الرَّسولُ ﷺ فإِنَّه كافِرٌ مباحُ الدَّمِ والمَالِ، يَجِبُ قِتَالُه حتَّى يَدْخُلَ في الإِسْلام، أَو يدفعَ الجِزْيَةَ إِن كانَ من أَهلِ الكِتابِ أو المجوسِ صَاغِراً مُنْقَاداً للإِسْلامِ.

هذا هو الإِسْلامُ بمعناهُ العَامُّ، وبمعناهُ الخاصُّ الذي بَعثَ اللهُ به محمداً ﷺ.

٢ ـ أَرْكَانُ الإِسْلَامِ:

هَذا الإِسْلامُ الذي جاءَ به الرَّسُولُ ﷺ يَنبِني على أَركانٍ هي دَعائِمُه، وكَذلِكَ يَنبِني على قُرُباتٍ وطَاعاتٍ مُكَمِّلةٍ لهذِه الأَركانِ، فكلُّ ما جاءَ به الرَّسولُ ﷺ من الأَمرِ والنَّهي فإِنَّه هو الإِسْلامُ. لكن هناكَ أَشياءُ هي دعائمُ، للإِسْلامِ وأَركانٌ له، بيّنها

حديثُ جبريلَ عليه السَّلامُ لَمّا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ وقال: أَخبِرْني عن الإِسْلامِ، قال: «**الإِسْلاَمُ: أَنْ تَشْهدَ أَن لا إِلـه إِلاَّ اللهُ، وأَنَّ محمداً رسُولُ اللهِ، وتقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتِي الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتحُجَّ البيتَ إِنِ استَطَعْتَ إِليه سَبِيلاً**»(١)، ففسَّرَ الإِسْلاَمَ بهذِهِ الأَركانِ؛ لأَنَّ الإِسْلامَ يقومُ عليها كَما يقومُ البِناءُ على أَركانِه وعلى دَعائِمهِ، وليستْ هي الإِسْلاَمُ كلَّه، إنما هي دعائِمُه، والإِسْلامُ: كلُّ ما جاءَ به الرَّسولُ ﷺ من الأَوامِرِ والنَّواهِي.

والدَّليلُ على ذَلِكَ: حديثُ ابنِ عمرَ رضي اللهُ عنه، وفيه يقولُ ﷺ: «**بُنِيَ الإِسلام على خَمْسٍ: شَهادَةِ أَنْ لا إِله إِلاَّ اللهُ، وأَنَّ محمَّداً رسولُ الله، وإِقامِ الصَّلاةِ، وإِيتاءِ الزكاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عمر: كتاب الإيمان، باب (١)، رقم(٨)، [١/ ١٠١].
وهو متفق عليه أيضاً من حديث أبي هريرة: البخاري: كتاب الإيمان، باب (٣٧)، رقم (٥٠)، [١/ ١٥٢].
ومسلم: كتاب الإيمان، باب (١)، رقم (٩، ١٠)، [١/ ١١٥].

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر:
البخاري: كتاب الإيمان، باب (٢)، رقم(٨)، [١/ ٦٩].
ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٥)، رقم (١٦)، [١/ ١٣٠].

فقوله: «بُني» يدل على أن هذه الخمس هي الدَّعائم التي بني عليها وقام عليها.

وحَدِيثُ ابنِ عمرَ هذا مُفسِّرٌ لحديثِ عمرَ في قِصَّةِ جِبريلَ عَليه السَّلامَ، ومُبيِّنٌ أَنَّ هذِه الأُمورَ التي ذكرَهَا النبيُّ ﷺ في حَديثِ جبِريلَ، إنما هي أَركانُ الإِسْلامِ ومَبانِيهِ، وهناكَ شَرائعُ مُكَمِّلةٌ لهذِه المَباني، ولهذا يقولُ ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلِمُون من لسانِه ويدِه»(١)، فكلُّ الطَّاعَاتِ سواءٌ كانتْ واجبةً أَم مُستحبَّةً كلُّها من الإِسلامِ، وتَجنُّبُ كلِّ المُحرَّماتِ التي نَهى اللهُ عنها هُوَ من الإِسْلامِ، فَتَركُ الزِّنا والسَّرِقَةِ وشُرْبِ الخمرِ، وأَكلِ الرِّبا، والغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ، وكلِّ ما نَهى اللهُ عنه، تَركُهُ هو الإِسْلامُ، لكنَّ هذِه الخمسَ هي دَعَائِمَهُ، وما زَادَ عنها فإِنّه يَكونُ متمِّماً ومكمِّلاً لها.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عبدالله بن عمرو: كتاب الرقاق، باب (٢٦)، رقم(٦٤٨٤)، [١١/ ٣٨٣].
وأخرجه مسلم من حديث جابر: كتاب الإيمان، باب (١٤)، رقم (٤٠)، [١/ ٢٠٢].
وهو متفق عليه بنحوه من حديث أبي موسى الأشعري: البخاري (١١)، ومسلم (٤٢).

وهذه الأَرْكانُ الخَمسةُ ذكرَها اللهُ في القُرآنِ في آياتٍ كَثيرةٍ.

أ ـ أَما الرُّكنُ الأَوَّلُ: وهُو الشَّهادَتانِ، فَهَذا كَثيرٌ في القُرآنِ، كلُّ الآيات التي تَأْمرُ بالتَّوحيدِ وتَنْهى عن الشِّركِ، فإنَّها في تحقيق الرُّكنِ الأَوَّلُ، وكلُّ الآياتِ التي تُوجِبُ طَاعةَ الرَّسُولِ ﷺ واتباعِه، وتُثبِتُ رِسالتَه فإنَّها تَدْخُل أَيضاً في تحقيق الرُّكنِ الأَوَّلِ.

من ذَلِكَ قولُه تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١] وقوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر: ١٤]، إلى غيرِ ذَلِكَ من الآياتِ التي تأْمُر بعبادةِ اللهِ، وتَنْهى عن الإِشْراكِ به.

ومن الآيَاتِ التي تدلُّ على شَهادَةِ أَنَّ محمداً رسولُ اللهِ: قولُه تعالَى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]،

فهي تُثْبِتُ بالمُعجزَةِ رِسالَةَ النَّبيِّ ﷺ وقولُه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ [الأنفال: ٦٤] ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقولُه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ ﴾ [المزمل: ١]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ [المدثر: ١] كلُّها خِطابَاتٌ للرَّسولِ ﷺ، وفِيها إثباتُ رِسالَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل: ١٥]، يعني: محمداً ﷺ. وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾

[الأحزاب: ٤٥، ٤٦] كلُّ هذهِ الآياتِ فيها إثباتُ الرِّسَالةِ للنَّبي ﷺ.

كَذَلِكَ الأَمرُ بطاعَتِه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤]، فَهذِه الآياتُ وغيرُها في الرُّكنِ الأَوَّلِ بجزأيه: شَهادَةِ أَنْ لا إله إلاَّ اللهُ وأَنَّ محمداً رسولُ اللهِ.

فَالآياتُ التي تأمُرُ بعبادَةِ اللهِ وحدَه لا شَريكَ لَه، مَعْناها: شَهادةُ أَنْ لا إلـه إلاَّ اللهُ. والآيَاتُ التي تُثْبتُ رِسَالةَ محمدٍ ﷺ، وتأمُرُ باتِّباعِه والاقتِداءِ به، هي في شَهادَةِ أَنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ.

هذَا هُو الرُّكنُ الأَوَّلُ، وهو أَصْلُ الدِّينِ وأَسَاسُه، يَقُومُ عَليهِ الدِّينُ كلُّه، لا يَقُومُ الإِسْلامُ ولا الإِيمانُ إلاَّ إذا تحقَّقَ الرُّكْنُ الأَوَّلُ (شَهادَةُ أَنْ لا إله إلاَّ اللهُ، وأَنَّ محمداً رسولُ اللهِ).

وهَذَا الرُّكنُ مكثَ النبيُّ ﷺ يدعُو إليه في مكةَ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً بعدَ البعْثَةِ.

ب ـ الركن الثاني من أركان الإسلام: الصلاة:

وقَدْ فُرِضَتْ على رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيلةَ المِعْراجِ قُبَيْلَ الهِجْرةِ

من مَكةَ إلى المَدِينَةِ، لمَّا أُسرِيَ به إلى بَيْتِ المَقْدِسِ وعُرِجَ به إلى السَّماءِ، أَيْ صُعِدَ بالنَّبيِّ ﷺ برُوحِهِ وجَسَدِهِ، يَقَظَةً لا مَناماً، إلى السَّماءِ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، فَفَرَضَ اللهُ عليه الصَّلواتِ الخَمْسَ فوقَ سَبْعِ سَمَاواتٍ[1].

وقَدْ ذَكَرَ اللهُ الصَّلاةَ في القُرآنِ في آياتٍ كَثيرةٍ، فَتَارةً يأمُرُ بإقامتِها: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وَتَارَةً يَأمرُ بالمُحافَظَةِ عَليها: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وَتَارَةً يَتَوعَّدُ المُضيِّعينَ لها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥]، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: ٥٩]، وَتَارةً يُخْبِرُ عن مَصِيرِ المُضَيِّعينَ للصَّلاةِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢﴾ أي: النار ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢ـ٤٧]، فذكَرَ أَوَّلَ ما أَجَابُوا: أَنَّهم لا يُصلُّونَ: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

(١) متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم تخريجه.

وبَيَّن النبيُّ ﷺ: أَنَّ الصَّلاةَ هِي عَمُودُ الدِّينِ(١)، مَنْ حَفِظَها فقد حَفِظَ دِينَه، ومَنْ ضَيَّعَها فقد ضَيَّعَ دِينَه. وأَوَّلُ ما يُحاسَبُ عليه العَبدُ يَوْمَ القِيَامَةِ من أُمور دِينِه الصَّلاةُ(٢)، فإِنْ قُبِلَتْ قُبِلَ سَائِرُ عملِه، وإِنْ رُدَّتْ رُدَّ سَائِرُ عَمَلِه(٣).

وقد تردَّدَ ذِكْرُ الصَّلاةِ في القُرآنِ وتَنوَّعَ في آياتٍ كَثِيرةٍ؛ لأَنَّها عمودُ الإِسْلام وهِيَ الفَارِقَةُ بينَ المُسْلِمِ والكَافِرِ؛ قَال ﷺ: «بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ»(٤)، وقالَ عليه

---

(١) كما في حديث معاذ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة»، أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب (٨)، رقم (٢٦٢١)، [٥/ ١٢]. ونحوه عند أحمد: برقم (٢٢٣٦٦) [٧/ ٣٥٠].
وأخرجه بلفظ: «الصلاة عمود الدين» عن ابن عمر: البيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة:
أبو داود: كتاب الصلاة، باب (١٤٩)، رقم (٨٦٤)، [١/ ٣٧٨].
والترمذي: كتاب الصلاة، باب (١٨٨)، رقم(٤١٣)، [٢/ ٢٦٩].
والنسائي: كتاب الصلاة باب (٩)، رقم (٤٦٤)، [١/ ٢٥١].
وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب (٢٠٢)، رقم (١٤٢٥)، [٢/ ١٨٢].

(٣) أخرج هذه الزيادة الطبراني في الأوسط من حديث أنس.

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر: كتاب الإيمان باب (٣٥)، رقم (٨٢)، [١/ ٢٥٩].

الصَّلاةُ والسَّلامُ: «العَهْدُ الذِي بيننا وبينهُم الصَّلاةُ فمَنْ تَرَكَها فقدْ كَفَرَ»(١)، فَلا دِيْنَ لمَنْ لا صَلاةَ له.

وقَالَ تَعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فَذَكر في الصَّلاةِ فَائِدتَيْنِ عَظِيمَتينِ:

الأُوْلَى: أَنّها تَنْهَى صَاحِبَها عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ، فالذِي يُحافِظُ على الصَّلاةِ يَتَجَنَّبُ الفَحْشَاءَ والمُنْكَر.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ فيها ذكرُ اللهِ سبحانَه وتَعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾، فالصَّلاةُ ذِكْرٌ للهِ عزَّ وجلَّ.

والصَّلاةُ أَيضاً يُسْتَعانُ بِها على الشَّدائِدِ؛ قَال تعالَى:

---

(١) أخرجه من حديث بريدة:
أحمد: برقم (٢٣٣٢٥)، [٧/ ٦١٤].
والترمذي: كتاب الإيمان باب (٩)، رقم(٢٦٢٦)، [٥/ ١٣].
والنسائي: كتاب الصلاة باب (٨)، رقم (٤٦٢)، [١/ ٢٥٠].
وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة باب (٧٧)، رقم (١٠٧٩)، [١/ ٥٦٤].
وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤١٤٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، وقالَ تعالى في شأنِها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، ثم ختم الآيات بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

هَذِهِ هيَ الصَّلاةُ (الرُّكنُ الثَّانِي من أَركانِ الإِسْلَامِ)، وذِكرُها في القرآنِ كثيرٌ، حتَّى إنَّ الله تعالى علَّقَ عِصْمَةَ الدَّمِ والمَالِ بإقامةِ الصَّلاةِ؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في الآية الأُخْرى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ [التوبة: ١١]، فَلو تَابُوا وشَهِدُوا أَنْ لا إِلـٰه إِلاَّ اللهُ وأَنَّ محمداً رسولُ اللهِ، ولم يُقِيمُوا الصَّلاةَ فإنَّهم لا يُخلَّى سبِيلُهم؛ بل يُقاتَلُون لِيقُيموا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكاةَ؛ لأَنَّ الزَّكاةَ قَرِينَةُ الصَّلاةِ في كِتَابِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

جـ ـ الرُّكْنُ الثَّالِثُ: الزَّكَاةُ:

وقَدْ فُرِضَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيةِ من الهِجْرَةِ، وبَعَثَ النبيُّ ﷺ السُّعاةَ لِجبَايَةِ الزَّكاةِ. وقد تكرَّرَ ذِكْرُهَا في القُرآنِ، وكُلَّما ذُكِرَتِ الصَّلاةُ ـ في الغَالِبِ ـ ذُكِرتْ في جَانِبِها الزَّكاةُ؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ . . .﴾ [البقرة: ٤٣]، ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٢ ـ ٢٥] والحق المعلوم هو الزكاةُ. وقال تعالى عنها: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ أي: الزكاة ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠]، لمَّا أوجَبها على عِبادِه بيَّن مَصَارِفَها تأكيداً لشأنها.

وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، ولم يقل خُذْ أَموالَهم؛ لأَنَّ الزكاة حَدٌّ مَحدودٌ من المَالِ، لا يَضُرُّ بأَصحابِ الأَموالِ، وإِنَّما يَعُودُ عَليهم بالنَّفعِ والبَرَكَةِ، ولِذَلِكَ قال: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، فهِيَ تَعُودُ عليهم بالطَّهارَةِ والنَّماءِ

في أموالِهم، وفي أعمالِهم وحَسَناتِهم.

ويَتكَّررُ ذِكْرُ الزَّكاةِ في القُرآنِ: تارةً مَقْرونةً مع الصَّلاةِ، وهو الغَالِبُ، وتَارةً تأتِي وحدَها مما يَدُلُّ على أَهمِّيَّتِها.

ولمَّا مَنع قومٌ دفْعَ الزَّكاةِ بَعْدَ وَفاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قاتلَهم أَبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ ومعَه صَحَابةُ رسولِ اللهِ ﷺ، وقال: «واللهِ لأُقاتِلَنَّ مَنْ فَرَّق بَيْنَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ فإن الزكاةَ حقُّ المالِ واللهِ لو مَنعُوني عِقَالاً كانُوا يُؤَدُّونه إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لقاتلتهم عليه»(١).

د ـ الرُّكْنُ الرَّابِعُ: الصِّيامُ:

وكانَ فَرْضُه في السَّنَةِ الثَّانِيةِ للهِجْرَةِ، وهو مَذكورٌ في آياتٍ كَثيرةٍ: قالَ تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ

---

(١) متفق عليه من قول أبي بكر كما في حديث أبي هريرة:
البخاري: كتاب الزكاة، باب (١)، رقم (١٣٩٩)، [٣/ ٣٣١].
ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٨)، رقم(٢٠)، [١/ ٥٠].

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . . .﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥]، فأَوجبَ اللهُ صِيَامَ رَمَضَانَ إِمَّا: أداءً في حَقِّ المُقيمِ الصَّحِيحِ، وإِمَّا قَضَاءً في حقِّ المُسَافِرِ أَو المَرِيضِ، فَلابُدَّ مِن صِيَامِ رَمَضَانَ على المُسْلِمِ البَالِغِ العَاقِلِ؛ لأَنَّهُ رُكْنٌ من أَركانِ الإِسْلامِ.

وأَثْنَى اللهُ على الصَّائِمينَ في آياتٍ، مثلُ قولِه تعالَى في سُورةِ الأَحزابِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ . . .﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ . . .﴾ [الأحزاب: ٣٥] فجعلَ من جُمْلَةِ صِفَاتِ المُؤمِنينَ الصِّيامَ.

هـ ـ الرُّكْنُ الخَامِسُ: الحَجُّ:

وَتَأَخَّرَ فَرْضُه إِلى السَّنَةِ التَّاسِعَةِ من الهِجْرَةِ، ولم يحُجَّ النبيُّ ﷺ في السَّنَةِ التَّاسِعَةِ؛ لوُجُودِ المُشْرِكينَ الذين يَطُوفُونَ بالبَيْتِ عُراةً، وأَرسلَ أَبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِي اللهُ عنه يحجُّ بالنَّاسِ، وأَرسل بعدَه علي بنَ أَبي طالبٍ رضي الله عنه يُنادِي في النَّاسِ بصَدْرِ سُورةِ بَراءة، وأَنْ لا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، ولا يطوفَ

بالبيتِ عُرْيانٌ(١). فلما تَطَهَّرَ البيتُ من المُشْرِكين والعُراةِ حجَّ النبيُّ ﷺ في السَّنَةِ العَاشِرَةِ حَجَّة الوَدَاعِ التي لم يَمْكُثْ بعدَها في الدُّنيا إلاَّ أَقلَّ من ثلاثةِ أَشهرٍ حتى لَحِقَ بالرَّفِيقِ الأَعلى. ﷺ، وجزاه عن أُمته أَفضل ما جزى نبيًّا عن أُمته.

وقد أَنزلَ اللهَ تعالَى في شأنِ الحجِّ قولَه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]وهذا يقتضِي الوُجوبَ، وأَنَّ الحجَّ حقٌّ للهِ سبحانه وتَعالَى على المُستطِيعِ من النَّاسِ.

وقولُه: ﴿ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، أَي: الزَّادَ والمركوبَ الذي يُوصِلُه ويُبلِّغُه إلى مَكَّةَ. أَمَّا الذي لا يَسْتَطِيعُ لِكونِه فَقِيراً ليسَ عندَه زادٌ، أَو عندَه زادٌ لكنْ ليسَ عندَه ما يَركبُه من وسائِلِ النَّقْلِ ويبلِّغُه، فهذا مَعْذورٌ في المُبادَرَةِ لأَداءِ الحَجِّ، ويَبقَى في ذِمَّتِه إلى أَنْ يَستطِيعَ. كَذَلك المريضُ إذا لم يَسْتَطِعْ بَدَنِيًّا ويُرجى

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة:
البخاري: كتاب الصلاة، باب (١٠)، برقم (٣٦٩)، [١/ ٦١٩].
ومسلم: كتاب الحج، باب (٧٨)، رقم (١٣٤٧)، [٥/ ١١٩] مختصراً.

شِفَاؤهُ فَإِنَّه أَيْضاً يَنْتَظِرُ. أَمَّا إذا كانَ مَرَضُه مُزْمِناً ولا يَسْتَطِيعُ، أَو كان كَبِيراً هَرِماً لا يَستطيعُ السَّفَرَ للحجِّ، فهذَا يُوكِّلُ مَنْ يحجُّ عنه؛ لأَنَّ الحجَّ تدخُلُه النِّيابةُ عن العَاجِزِ الذي لا يَسْتَطِيعُ لمرضٍ مُزْمنٍ أَو لِكِبَرٍ. أَمَّا الذي لا يَسْتَطِيعُ لِعدمِ وُجُودِ المَالِ فهذَا لا يَجِبُ عليه الحجُّ. أَمَّا الذي يَستطِيعُ مادِّيًّا ولا يَستطِيعُ بَدنيًّا، فهذَا: إذا كانَ يُرجَى زَوالُ المَانِعِ فإِنَّه يَنْتَظِرُ، وإِنْ كانَ لا يُرجَى زَوالُ المَانِعِ فإِنَّه يوكِّلُ، ولهذَا لما جَاءتِ امرأةٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالتْ: إِنَّ أَبي أَدركتْهُ فَرِيضَةُ اللهِ على عِبادِه في الحجِّ وهو هَرِمٌ لايَستطِيعُ الثَّبَاتَ على الرَّاحِلَةِ، أَفأَحُجُّ عَنْهُ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «**فحُجِّي عنه**»(١).

ولمَّا كَان الحجُّ يُؤْتَى إليه من بَعِيدٍ في الأَغلبِ، وفيه مَشَقَّةٌ وأَخطارٌ، جَعَلَهُ اللهُ في العمرِ مرَّةً واحِدَةً؛ تَيْسِيراً على النَّاسِ، وما زَادَ فهو تَطوُّعٌ. أَمَّا الصَّلاةُ فإِنَّها تَتكرَّرُ في اليَومِ واللَّيلةِ خمسَ

(١) متفق عليه من حديث الفضل في قصة الخثعمية:
البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب (٢٣)، رقم(١٥١٣، ١٨٥٤)، [٤/ ٨٦].
ومسلم: كتاب الحج، باب (٧١)، رقم (١٣٣٤، ١٣٣٥)، [٥/ ١٠٢]، واللفظ له.

مَرَّاتٍ، وهذا يدلُّ على عَظَمتِها وقَدْرِها عند اللهِ سُبحانَه وتعالَى.

والزَّكاةُ تجبُ مرَّةً عندَ تمامِ السَّنَةِ (تمامِ الحولِ)، وكَذلِكَ الصِّيامُ الواجبُ فيه صيامُ شهرٍ من اْثني عَشَرَ شَهْراً من السَّنَةِ. وهذَا من تَيْسِير اللهِ سُبحانَه وتَعالَى.

ثم إِنَّ هذه الأَركانَ: مِنْها ما هو بَدَنِيٌّ لا تدخُلُه النِّيابَةُ، كالصَّلاةِ والصِّيامِ، ومِنْها ما هُو ماليٌّ كالزَّكَاةِ. ومِنْها ما هُو مركَّبٌ من الأَمرينِ: بَدنيٌّ ومَاليٌّ، وهو الحجُّ؛ لأَنَّ الحجَّ يَتكوَّنُ من الاستطاعَةِ الماليَّةِ والاستِطاعَةِ البَدَنِيَّةِ.

فَهذِه أَركانُ الإِسْلامِ كما جَاءَتْ في القُرآنِ الكَريمِ.

وقد بَيَّنَتِ السُّنَّةُ ما أَجملَه القُرآنُ الكَرِيمُ من هَذِهِ الأَرْكَان:

فالقُرآنُ ذَكَرَ الصَّلاةَ وبيَّن أَوقاتَها من غيرِ تَفْصيل؛ قال تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ـ١٨] فهَذا بيانٌ مجملٌ للأَوقَاتِ.

ثم جَاءتِ السُّنَّةُ فبيَّنتْ أَوقاتَ الصَّلواتِ الخَمسِ على

التفصيل، بينت أَنَّ صَلاةَ الفَجرِ يبدأ وقتُها بِطُلوعِ الفَجرِ الصَّادِقِ، وأَنَّ صَلاةَ الظُّهرِ يبدأُ وقتُها بِزَوالِ الشَّمْسِ عن وسط السماء، وأَنَّ صَلاةَ العَصْرِ إِذا بَلَغَ ظِلُّ الشيءِ مِثْلَهُ، وأَنَّ صَلاةَ المَغْرِبِ يبدأُ وَقتُها بغُروبِ الشَّمْسِ، وأَنَّ صَلاةَ العِشَاءِ يبدأُ وقتُها بمغِيبِ الشَّفَقِ الأَحمرِ.

فجعلَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى عَلامَاتِ المَواقِيتِ وَاضِحةً، يَعْرِفُها كلُّ أَحدٍ: المُتعلِّمُ والعَامِّيُّ، والحَضَرِيُّ والبَدَوِيُّ.

كَذلِكَ الصِّيَامُ جَعلَ اللهُ عَلامَتَه وَاضِحةً، وهو الهِلاَلُ؛ قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقالَ النبيُّ ﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ»(١).

هَكَذَا دِينُ الإِسْلَامِ، وللهِ الحَمْدُ، دينُ اليُسْرِ والسَّمَاحَةِ والسُّهولَةِ، ليسَ فيه آصَارٌ ولا أغلالٌ، وإِنَّما هو دينٌ مُيسَّرٌ.

وكَذلِكَ ـ كما ذكرنا ـ فاللهُ جلَّ وعلاَ لم يَذكرْ عَدَدَ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة:
البخاري: كتاب الصوم، باب (١١)، رقم (١٩٠٩)، [٤/ ١٥٤].
ومسلم: كتاب الصيام، باب (٢)، رقم(١٠٨١)، [٤/ ١٩٣].

الرَّكَعَاتِ. وإنما أَمرَ بإِقَامَةِ الصَّلاةِ مطلقاً، ولم يُبيِّنْ أَوقَاتَها، ولم يُبيِّنْ أَعدادَ الرَّكَعَاتِ. والنبيُّ ﷺ بَيَّن بفعله أَنَّ صَلاةَ الفَجْرِ رَكْعتَانِ، وأَنَّ صَلاةَ الظُّهرِ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ، وأَنَّ صَلاةَ العَصْرِ أَرْبعُ رَكَعَاتٍ، وأَنَّ صَلاةَ المَغْرِبِ ثَلاثُ رَكَعَاتٍ، وأَنَّ صَلاةَ العِشَاءِ أَربعُ رَكَعَاتٍ. هذا للمُقِيمِ. وأَمَّا المُسَافِرُ فيَقْصُرُ الرُّباعِيَّةَ إِلى رَكْعَتَينِ. هَكَذا بَيَّنتِ السُّنَّةُ ما جَاءَ في القُرآنِ الكَرِيمِ من أَمْرِ الصَّلاةِ.

وكَذلِكَ في الزَّكَاةِ: فاللهُ جَلَّ وعَلا أَمر بإِعطاءِ الزَّكَاةِ إِجمالاً، ولم يُبيِّنِ الأَموالَ التي تَجبُ فِيها، فَبيَّنَ رسولُ الله ﷺ أَنَّها تَجِبُ في أَربعةِ أَنواعٍ: بَهِيمَةُ الأنعامِ، وعُرُوضُ التِّجارَةِ، والحُبوبُ والثِّمارُ، والنَّقْدَانِ (الذَّهَبُ والفِضَّةُ)، هَذِهِ هي الأَموالُ التي تَجِبُ فيها الزَّكاةُ.

ثم بيَّن ﷺ المِقدارَ الوَاجِبَ، وأَنَّه رُبُعُ العُشْرِ من الذَّهبِ والفِضَّةِ، وبَيَّنَ النِّصابَ، وأَنَّه من الذَّهَبِ عِشْرُون مِثْقَالاً، ومن الفِضَّةِ مئةٌ وأَرْبَعُونَ مِثْقَالاً(١). وبيَّن النِّصابَ من الغَنَمِ، ومنَ

---

(١) كما في حديث أبي سعيد: «ليس فيما دون خمسة أواق صدقة»، أخرجه=

البَقَرِ، ومن الإِبلِ(١).

أَمَّا أَهْلُ الزَّكَاةِ فإِنَّ اللهَ جَلَّ وعَلا لم يَكِلْ بيَانَهم إلى الرَّسُولِ ﷺ، وإنَّما تولاَّهُ بِنَفْسِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

كَذلِكَ الصِّيَامُ، يقولُ اللهُ جَلَّ وعَلا: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [البقرة: ١٨٧]، هَذا فِيهِ إِجمالٌ. والرَّسُولُ ﷺ بَيَّنَ المرادَ من الخَيْطِ الأَبيضِ ومن الخَيْطِ الأَسْودِ أَنَّه: «سَوادُ اللَّيلِ وبَيَاضُ النَّهارِ»، فإِذَا خَرَجَ النَّهارُ - وَهُوَ البَيَاضُ المُعترِضُ في الأُفُقِ - فإِنَّه يُمْسِكُ الصَّائِمُ.

= البخاري كتاب الزكاة، باب (٣٢)، رقم(١٤٤٧)، [٣/ ٣٩١]، ومسلم (رقم ٩٧٩). وحديث أبي بكر في الصدقات «وفي الرقة ربع العشر»، رقم(١٤٥٤).

(١) كما في حديث أبي بكر في الصدقات، أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب (٣٨)، رقم(١٤٥٤) [٣/ ٣٩٩]. في زكاة الإبل والغنم والفضة.

ولَمَّا سَمِعَ بعضُ الصَّحَابَةِ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، أَخَذَ خَيْطَيْنِ: أَحدُهُما أَسودُ والآخَرُ أَبيضُ، وَوَضَعَهُما عندَ رأْسِهِ، وصَارَ يَنظرُ فِيهِمَا، فلمْ يَتَبيَّن له إِلاَّ بعدَما اتَّضَحَ النَّهارُ فجاءَ إِلى النبي ﷺ وأَخبرَه، فبيَّن لَه النبيُّ ﷺ أنَّه ليسَ هذَا هو المقصودُ، وإِنَّما المقْصُودُ بَيَاضُ النَّهارِ وسَوادُ اللَّيلِ[1]، وليسَ المرادُ الخيوطَ المعْهودةَ المعرُوفَةَ. هَذَا بَيانُ رَسُولِ الله ﷺ. وقال: «**إِذا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنا**» يعنِي: من المشْرِقِ: «**وأَدْبرَ النَّهارُ من هَاهُنا**» يعني: من المَغرِبِ «**وغَرَبَتِ الشَّمْسُ؛ فَقَدْ أَفطرَ الصَّائِمُ**»[2] أي: انتهى وقتُ الصِّيامِ حتَّى ولَو لمْ يأكلْ، ولو لَمْ يَشرَبْ، فإِنَّه انتهى وقتُ صِيَامِه، فإِذا بَقِيَ بعدَ غُروبِ الشَّمْسِ لا يأكلُ ولا يَشْرَبُ فهذا لَيْسَ بِصِيَامٍ، ولا يُثَابُ عليه؛ لأَنَّه انتهَى وقتُ العِبادَةِ، وانتهى

---

(١) والحديث متفق عليه عن عدي بن حاتم:
البخاري: كتاب الصوم، باب (١٦)، رقم(١٩١٦) [٤/ ١٦٩].
مسلم: كتاب الصيام، باب (٨)، رقم (١٠٩٠)، [٤/ ٢٠٠].

(٢) متفق عليه من حديث عمر (وابن عمر): البخاري: كتاب الصوم، باب(٤٣)، رقم (١٩٥٤)، [٤/ ٢٤٩].
ومسلم: كتاب الصيام، باب (١٠)، رقم (١١٠٠)، [٤/ ٢٠٩].

وقتُ الصِّيَامِ، ولا يُزادُ على ما شَرَعَهُ اللهُ، إلاَّ مَا جَاء في حَقِّ الوِصَالِ إلى السَّحَرِ(١) فهذَا شيءٌ آخَرُ.

وكذلك القول في الحَجِّ جَاءَ الأمرُ به في القُرآنِ مُجْمَلاً من وجوهٍ عَديدة:

كم مرَّةً يَجِبُ في العُمرِ؟ بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّه يجب مرةً واحدةً.

كَيْفَ يُؤَدَّى الحَجُّ؟ بيَّن النبيُّ ﷺ ذلك بفعله، فقد حجَّ النبيُّ ﷺ بأَصحابِهِ وقالَ لهم: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»(٢)، فبيَّن ﷺ مَنَاسِكَ الحَجِّ: من طَوافٍ وسَعْيٍ ووقُوفٍ بِعَرَفَةَ.

وبيَّن متى يَبْدَأُ الوُقوفُ؛ ومَتَى ينتهي واللهُ جلَّ وعَلاَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، لكن لم

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد: كتاب الصوم، باب (٤٨)، رقم(١٩٦٣)، [٤/٢٥٧].

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر بلفظ: «لتأخذوا مناسككم»: كتاب الحج، باب (٥١)، رقم (١٢٩٧) [٥/١٤٩].
وأخرجه بلفظ: «لتأخذوا مناسككم» أحمد: برقم (١٤٤٧٢) [٥/ ٧٥] والنسائي: كتاب المناسك، باب (٢٢٠)، رقم (٣٠٦٢، [٣/٢٩٨].

يبين وقته، والرَّسُولُ ﷺ بيَّنَهُ.

وكذَلِكَ المبيتُ بمزدَلِفةَ قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ولـم يبيِّـن تَفـاصيـلَ ذَلِـكَ، والنَّبـيُّ ﷺ بيَّـن ذلِـكَ بـأَنْ نَـزَل بِمُزدلِفَةَ، وصَلَّى بها المَغرِبَ والعِشَاءَ جَمْعاً وقَصْراً، ثم باتَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثم صَلَّى الفَجرَ بغَلَسٍ مُبكِّراً، ثم وَقَفَ يَدْعُو حتَّى أَسفرَ جِدًّا، ثم دَفَعَ إِلى منىً فبيَّن كيف نَذْكُرُ اللهَ عندَ المَشْعَرِ الحَرامِ.

وقال تعالَى: ﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، يعني: أيامُ التَّشرِيقِ والنَّبيُّ ﷺ بيَّن مَاذا يُفعَلُ في أَيَّامِ التَّشرِيقِ النُّزولُ بِمنىً، والمَبيتُ بِها، ورَمْيُ الجِمارِ. وبيَّن ﷺ كيف يبدأُ وكيفَ يَنْتَهِيْ، وبِكَمْ تُرمَى الجَمرَاتُ، وأَنَّ ذلِكَ بِسَبْعِ حَصَياتٍ، فبيَّن ﷺ البَيانَ الشَّافِي(١).

(١) كما في الأحاديث الكثيرة الواردة في صفة حجة الوداع، وأوفاها حديث جابر عند مسلم: كتاب الحج، باب (١٩) رقم (١٢١٨)، [٤/ ٤٠٢].

ولهَذَا يقولُ العُلماءُ: إنَّ السُّنَّةَ المُطهَّرَةَ مُفَسِّرةٌ للقُرآنِ ومُبيِّنَةٌ له. وهي وحيٌ من اللهِ جلَّ وَعَلا، كما قالَ تعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟..﴾ [الحشر: ٧] وقالَ تعالَى: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ..﴾ [النساء: ١١٣]. والكتابُ هُوَ القُرآنُ، والحِكْمَةُ هي السُّنةُ المُطهَّرةُ.

هَذِهِ هي أَرْكَانُ الإِسْلاَمِ الخَمْسَةِ كَما جَاءَتْ في القُرآنِ الكَريمِ، وكَمَا بَيَّنتها سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وليسَ الإِسْلامُ مَقْصُوراً عَلَيْها، بل هي أَركانُه ودَعَائِمُهُ ومَبَانِيهِ، ولكنْ كلُّ ما أَمرَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى بِفِعْلِهِ؛ فَفِعْلُهُ هُوَ الإِسْلاَمُ، وكلُّ ما أَمرَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى بتَرْكِهِ فاجتِنَابُه وتَرْكُهُ هو الإِسْلاَمُ.

ويَقولُ جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]: السِّلْمُ هو الإِسْلاَمُ، أَيْ: اعمَلُوا بكلِّ شَرائِعِهِ، ولا يُقتصر على بعضِ شَرائِعِ الإِسْلامِ ويُتركِ البَعْضُ. وقَدْ هَمَّ قومٌ أَنْ يَأْخُذُوا بِبَعْضِ شَرائِعِ الإِسْلاَمِ، ويَترُكُوا البَعْضَ

الآخَرَ، فأَنزل اللهُ فيهم هَذِهِ الآيةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ لكنْ هذا حَسَبَ المَقدِرةِ والاسْتِطَاعَةِ؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهُنَاكَ أُمورٌ لابُدَّ مِنْها وهي الأَرْكَانُ، وهُنَاكَ أُمورٌ مُكَمِّلَةٌ لها تكْمِيلاً وَاجِباً أَو تكْمِيلاً مُسْتَحبًّا. والتَّكْمِيْلُ الوَاجِبُ مَن تركَهُ يَأْثَمُ، والتكْمِيلُ المُسْتَحَبُّ مَن تَرَكَهُ لا يَأْثَمُ. ولكنْ في تَرْكِ التَّكمِيلِ الوَاجِبِ والمُستحبِّ نقصٌ في الإِسْلَامِ، بِحَسَبِ ما تَرَكَ من الطَّاعَاتِ ومَا يَرتكِبُ من المُحرَّمَاتِ والمَكْرُوهَاتِ، فينقُصُ إسْلَامُه بِذَلِكَ، وكُلَّمَا أَكثرَ من الطَّاعَاتِ وتَجَنَّبَ المُحرَّمَاتِ كَمُلَ إسْلَامُه.

* * *

الدَّرسُ الخامس
الإِيْمَانُ في القُرآنِ الكَرِيمِ

١ ـ تمهيد في بيان مراتب الدين :

الإِسْلامُ والإِيمانُ والإِحْسَانُ : مراتبٌ للدِّينِ، كما بيَّنَها النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

المَرتبةُ الأُولى : الإِسْلاَمُ، وله خمسةُ أَركانٌ، وقد تقدّم بيانُها بالتفصِيل.

المَرتَبَةُ الثَّانِيةُ: الإِيمَان، ولَه ستة أَركان، وَهِي مَذْكورةٌ في القُرآنِ الكَريمِ في آياتٍ كَثيرةٍ.

المَرتَبةُ الثَّالِثةُ ـ وهي أَعلاهَا ـ: الإِحْسَانُ.

كما بيَّنها رسولُ اللهِ ﷺ في حَديثِ جبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لمَّا سَأَله عن هذه المَراتِبِ الثَّلاثِ، بيَّنها وَاحِدةً

وَاحِدَةً[١].

٢ ـ تعريف الإيمان:

الإِيْمَانُ في اللغةِ العَرِبيَّةِ معناهُ: التَّصدِيقُ، أَي: التَّصدِيقُ بالإِخبارِ عن شيءٍ غَائِبٍ، ويكونُ مَعَه ائْتِمَانٌ للمخبِر، أَيْ يَكُونُ المُصدِّقُ قد أَمِنَ المُصَدَّق فيما أَخبرَ به.

أَما الإِيمانُ في الشَّرْعِ فهو: «القَوْلُ باللِّسَانِ، والتَّصدِيقُ بالقَلْبِ، والعَمَلُ بالجَوارِحِ، يزيدُ بالطَّاعَةِ، ويَنْقُصُ بالمَعْصِيَةِ»، فَليسَ هو مجرَّدُ التَّصدِيق كما هُو في اللُّغَةِ.

والذين يَقُولونَ: الإِيمانُ هو التَّصدِيقُ فقطَ، هم المُرْجِئةُ، وهَؤلاءِ غَالِطُونَ. فالإِيمانُ في الشَّرْعِ يَتكوَّنُ من هذهِ الأُمورِ المأْخُوذةِ من الأَدلَّةِ، وليسَ هو تعريفاً اصطِلاحِيًّا أَو فِكْرِيًّا، وإِنما هُو مأْخوذٌ من الأَدِلَّةِ. مُسْتقرأٌ منها.

وَمَعْنَى القَولِ باللِّسَانِ: أَنْ يَنطِقَ بلِسَانِه بشَهادَةِ أَن لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وأَنَّ مُحمَّداً رسولُ اللهِ، يَنْطِقُ بِذَلِكَ ويُعلِنُ به. ويَدْخُلُ فيه أَيضاً كلُّ ما يَنْطِقُ به اللِّسَانُ من العِبادَاتِ القَولِيَّة، كالتَّسبيحِ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم تخريجه ص١٠١.

والتَّهليلِ، وتلاوة القرآن وذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ. هذا كلُّه قولٌ باللِّسَانِ، وهو إيمانٌ.

وهُوَ كَذلِكَ اعتقادٌ بالقَلْبِ، فلا يَكْفِي النُّطْقُ باللِّسانِ. فإِنْ كَانَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ ولا يَعتقِدُ بقلْبِهِ فهذَا إيمانُ المنافِقينَ الذين يَقُولُونَ بألسِنَتِهم ما ليسَ في قُلوبِهم. وكَذلِكَ مَنْ صدَّق بقلبه وَلَمْ يَنطِقْ بلِسانِه فهَذا ليسَ بمُؤْمِنٍ؛ لأَنَّ المُشرِكينَ والكُفَّارَ يَعتِقدونَ بقُلوبِهم صِدْقَ الرُّسلِ عَليهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكنْ أَبَوا أَنْ يَنْطِقُوا بأَلسِنَتِهم لغَرَضٍ من الأَغْراضِ، إمَّا لِحَمِيَّةٍ على دِينِهِم، كما أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ كُفَّارَ قُريشٍ أَنْ يَقُولُوا: «لا إله إلاَّ اللهُ»، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فهم أبَوا أَنْ يَقُولُوا لا إلهَ إلاَّ الله ويَشْهَدوا بِها؛ حَمِيَّةً لِدينِهم وعِبادَتِهم للأَوْثَانِ!!

فَالتَّصدِيقُ بالقَلْبِ بِدُونِ نُطقِ اللِّسَانِ لا يَكْفِي، وليسَ هُوَ الإيمانُ، وإِنَّما هَذا عند المُرجِئَةِ، والمُرجِئَةُ طَائِفَةٌ مُخالِفةٌ لأَهلِ السُّنَّةِ والجَماعة، لا عبرة بقولها.

وكَذلِكَ مَنْ نَطَقَ بلِسَانِهِ، وصَدَّق بِقلبه، ولم يَعملْ بِجَوارِحِهِ، فليسَ بِمُؤمنٍ إلاَّ عندَ المُرجِئَةِ أَيْضاً؛ لأَنَّ بعضَ

المُرجِئَةِ ـ وهُمْ مُرجِئَةُ الفُقَهاءِ ـ يَقُولُونَ: الإيْمانُ هو: القَوْلُ باللِّسانِ والتَّصدِيقُ بالقَلْبِ. ولا يُدْخِلُون أَعمالَ الجَوارِحِ في الإيمانِ.

والمُرْجِئَةُ أَربعُ فِرَقٍ:

أ ـ فِرْقةٌ يَقُولُونَ: الإيمانُ هو؛ القَوْلُ باللِّسَان فَقَطْ، وهَؤلاءِ هم الكرَّامِيَّةُ.

ب ـ وفِرْقَةٌ يَقُولُونَ: الإيمانُ هو: التَّصدِيقُ بالقَلْبِ فَقَطْ ولَوْ لَمْ يَنطِقُ، وهَذَا قولُ الأَشاعِرَةِ.

جـ ـ وفِرقَةٌ يَقُولُونَ: الإيمانُ: مجرَّدُ المعرِفَةِ بالقَلْبِ ولو لم يصدِّقْ. فإذا عَرَفَ بقلبِه ولو لم يُصدِّقْ، فإنَّه مُؤمِنٌ، وهذا قولُ الجَهمِيَّةِ، وهم شَرُّ فرقِ المُرْجِئَةِ.

د ـ الفِرْقَةُ الرَّابِعَةُ: الذِيْنَ يَقُولُونَ هُوَ: القولُ باللِّسانِ، والاعتِقَادُ بالقَلْب. وهَؤلاءِ أَخفُّ فِرَقِ المُرجِئةِ، ولِذلِكَ يُسمَّوْنَ بِمرجئَةِ الفُقَهاءِ.

أَمَّا جمهور أَهْل السُّنَّةِ والجَماعَةِ فإِنَّه لابُدَّ من هَذِهِ الحَقَائِقِ في الإِيمانِ:

قولٌ باللِّسَانِ، واعتِقَادٌ بالقَلْبِ، وعملٌ بالجَوارِحِ، يَزِيدُ بالطَّاعَةِ ويَنْقُصُ بالمعْصِيَةِ. فكلَّمَا عَملَ المرءُ طَاعةً زادَ إيمانُه، وكلَّما عَمِلَ مَعْصِيةً نَقَصَ إيمانُه. فإذا أَردتَ أَنْ يَزِيدَ إيمانُكَ فَعليكَ بالطَّاعَاتِ، فَذِكْرُ اللهِ يَزِيدُ في الإيمانِ، وسَمَاعُ القُرآنِ يَزِيدُ في الإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١] فدلَّ على أَنَّ الإيمانَ يَزِيدُ بالطَّاعَةِ ويَنقُصَ بالمَعْصِيَةِ. كلَّما عَصَى الإنْسانُ ربَّه نَقَصَ إيمانُه، حَتَّى رُبَّما أَدّى ذَلِكَ إلى أَنْ يَكُونَ إيمانُه ضَعِيفاً جِدًّا، يَكُونُ إيمانُه مِثْقَالَ ذرَّةٍ أَو أَقلَّ، فَيَضْعُفُ الإيمانُ حتَّى يكونَ قَرِيباً من الكُفْرِ؛ كما قَال تَعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

فالمَعَاصِي تُنقِصُ الإيمانَ، فَمَنْ خَاف على إيمانِهِ من النقص تجنَّبَ المَعَاصِي، وإلاَّ فلْيعلمْ أَنَّها كُلَّها على حِسَابِ

الإِيمانِ، كُلَّمَا عَملَ مَعصِيةً فإِنَّه يَنقُصُ إِيمانُه بِذلِكَ حتَّى ربَما لا يبقَى منه إلاَّ القَليلُ، بَلْ ربما يَزُولُ بالكُلِّيةِ؛ لأَنَّ بعضَ المَعَاصِي يُزِيلُ الإِيمانُ بالكُلِّيَّةِ، لا يَبْقَى معه إِيمانٌ، مثلُ الشِّرْك باللهِ عزَّ وجل والكُفْرِ به، وتَرْكِ الصَّلاةِ، هَذا يُزِيلُ الإِيمانَ بالكُلِّيَّةِ.

فهَذا هو تَعْريفُ الإِيمانِ عندَ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ.

٣ - أَرْكَانُ الإِيمَانِ:

الإِيمَانُ له أَرْكانٌ، يَعني؛ دَعائِمَ وأَعمِدةً يقُومُ علَيها، لا يَقُومُ بدونِها، فإِذا وُجِدتْ هَذه الأَرْكَانُ، وهذِه الدَّعائِمُ قامَ الإِيمانُ. وهَذه الأَرْكَانُ بيَّنها النَّبيُّ ﷺ لما سأَله جبريلُ قال: أَخبِرْني عن الإِيْمَانِ، فقال: «**الإِيمانُ: أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، ومَلائِكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**»(١).

هَذِه أَرْكَانُ الإِيمانِ، وهي سِتَّةُ أَركَانٍ:

الرُّكْنُ الأَوَّلُ: الإِيْمانُ باللهِ، وهَذَا يَشمَلُ التَّوحِيدَ بأَنواعِهِ الثَّلاثَةِ، فلا يَصِحُّ الإِيمانُ باللهِ إِلاَّ باعتِقادِ أنواع التَّوحِيدِ الثَّلاثَةِ.

---

(١) تقدم تخريجه ص١٠١.

الرُّكْنُ الثَّاني: الإِيْمانُ بالمَلائِكَةِ، فَتُؤمِنُ بأَنَّ للهِ مَلائِكةً خلقَهم لِعِبادَتِهِ، وخَلَقهم لِتَنْفيذِ أَوامِرِهِ في مَخْلُوقَاتِه، مِنْهم المُوكَّلُ بالوَحْي، ومِنْهم المُوكَّلُ بالقَطْرِ والنَّباتِ، ومِنْهم المُوكَّلُ بالنَّفْخِ في الصُّورِ، ومِنْهم المُوكَّلُ بقَبْضِ الأَرْواحِ عند المماتِ، ومِنْهم المُوكَّلُ بالأَجِنَّةِ في البُطُونِ، كما في حَديثِ ابنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه مرفوعاً: «**إِنَّ أَحدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يوماً نُطْفَةً، ثمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِليه المَلَكُ فَيُؤْمَرُ بأَربعِ كَلماتٍ؛ بكتْبِ رِزْقِهِ، وأَجلِهِ، وعَمَلِهِ، وشَقِيٌّ أَو سعيدٌ**»(١).

ومِن المَلائِكةِ نَوْعٌ مُوكَّلٌ بِحِفْظِ أَعمالِ بني آدَمَ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١٢]، يحفَظُونَ علينَا أَعمالَنا، خيرَها وشَرَّهَا، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٨]، تَابِعُونَ لابنِ آدمَ، يَكتُبونَ ما يَصْدُرُ منه من قَولٍ أَو فِعْلٍ، أَو قَصْدٍ أَو نِيَّةٍ،

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود:
البخاري: كتاب بدء الخلق، باب (٦)، رقم(٣٢٠٨)، [٦/ ٣٦٥].
ومسلم: كتاب القدر، باب (١)، رقم (٢٦٤٣)، [٨/ ٤٠٦].

يَتَعاقَبُونَ في اللَّيْلِ والنَّهارِ: مَلائِكةٌ يَنْزِلُونَ يُلازِمُونَ ابنَ آدمَ في اللَّيلِ من صَلاَةِ العَصْرِ إلى صَلاةِ الفَجْرِ، ويَنْزِلُ مَلائِكَةٌ آخَرُونَ من صَلاَةِ الفَجْرِ إلى صَلاَةِ العَصْرِ، ويَجْتَمِعُ مَلائِكةُ اللَّيْلِ ومَلائِكةُ النَّهَارِ في صَلاَةِ الفَجْرِ يَحْضُرونَها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] ويَجْتِمعُونَ في صَلاَةِ العَصْرِ، ويَشْهَدُونَها مَعَ المُسلِمينَ(١)، ولِذلِك صَارَ لِهاتَيْنِ الصَّلاتَيْنِ العَظِيمتَيْنِ مَزِيَّةٌ عَظِيمةٌ على غيرِهما من الصَّلوَاتِ.

ومنهم مَلائِكةٌ مُوكَّلُونَ بالجَنَّةِ لِتَنْفِيْذِ ما يأمُرُهُم اللهُ فيها من غَرْسِ الأَشْجارِ، وخِدْمَةِ أَهلِها وغيرِ ذَلِكَ.

ومَلائِكةٌ مُوكَّلُونَ بالنَّارِ، وهم خَزَنَتُها، ومالِكٌ رئِيسُهم (رئِيسُ الخَزَنَةِ).

ومنهم حَمَلةُ العَرْشِ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧]، والذِين حَوْلَ العرشِ هَؤلاءِ من المَلائِكةِ أيضاً. فالمَلائِكة أَصنَافٌ.

---

(١) كما في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة:
البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب (١٦)، رقم (٥٥٥)، [٢/ ٤٥].
ومسلم: كتاب المساجد، باب (٣٧)، رقم (٦٣٢)، [٣/ ١٤٣].

والسَّماوَاتُ مَمْلُوءَةٌ بالمَلائِكةِ، ويَنْزِلُون بأَمْرِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى إِلى الأَرْضِ لِتَنفِيْذِ أَوامِرِه سُبحانَه وتَعالَى.

فَيَجِبُ الإِيمانُ بالمَلائِكَةِ، ومَن جَحَدَ المَلائِكَةَ فإِنَّه كَافِرٌ؛ لأَنَّه جَحَدَ رُكْناً من أَرْكَانِ الإِيمانِ وهو أَمرٌ معلومٌ من الدِّين بالضَّرورةِ.

وفي الإِيمانِ بالمَلاَئِكةِ فَائِدةٌ للإِنْسَانِ وهي: أَنَّه يتحفَّظُ مِنْهم، ويحسِنُ القَوْلَ والعَمَلَ؛ لأَنَّهم يُسَجِّلُونَ علَيه ويَحْفَظُونَ عليه ما يَصْدُرُ عَنْهُ، فعليه أَنْ يَسْتحييَ منهم: فَيَتجنَّبَ المُنكرَاتِ، ويَتجنَّبَ إِدخالَ الكَلْبِ أَو الصُّورةِ في بيتِه؛ لأَنَّ المَلائِكةَ (أَي: مَلاَئِكةَ الرَّحمةِ) لا تدخُلُ بيتاً فيه كَلْبٌ ولا صُورةٌ [1]، ولا يجوزُ للمسلِم أَنْ يفعلَ كما يفعلُ الغَربِيُّونَ والمتَشبِّهون بِهم من اتِّخاذِ الكِلاَبِ في البُيوتِ؛ لأَنَّ هَذا يُسبِّبُ ابتِعادَ المَلائِكَةِ عن بَيْتِهِ.

الرُكْنُ الثَّالِثُ: الإِيمانُ بكُتِبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ، كما قَالَ تَعالَى:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي طلحة:
البخاري: كتاب بدء الخلق، باب (٧)، رقم (٣٢٢٥)، [٦/ ٣٧٥].
ومسلم: كتاب اللباس، باب (٢٦)، رقم (٢١٠٦)، [٧/ ٣١٠].

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ﴾ [الشورى: ١٥]، أي: جميع الكتبِ، مَا سمَّى اللهُ منها: كَالتَّوراةِ والإنجيل والزَّبورِ، وصُحُفِ إبراهيمَ ومُوسَى، والقُرآنِ، وهُو أَعظمُها. وما لم يُسَمِّ اللهُ منها، فَنُؤمِنُ بِجميعِ ما أَنزلَ اللهُ من الكُتب، ولا يَتِمُّ إيمانُ العَبْدِ مع جَحْدِهَا وإنكارِهَا.

الرُّكْنُ الرَّابعُ: الإيمَانُ بِجميعِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، من أَوَّلهم إلى آخرِهم، مَن سَمَّى اللهُ في القُرآنِ والسُّنَّةِ، ومَنْ لم يُسَمِّ منهم، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ومَنْ جَحد نبيًّا وَاحِداً فإنَّه كافرٌ بالجَميعِ.

والرُّسُلُ هم؛ الوَاسِطةُ بينَ اللهِ وبَيْنَ خَلْقِهِ في تَبليغِ الشَّرائِعِ والأَوامِرِ والنَّواهِي، والدَّعْوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.

الرُّكْنَ الخَامِسُ: الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ، يوم القِيَامَةِ، يَوْمِ البَعْثِ، يَومَ يُعِيدُ اللهُ الخَلائِقَ جَمِيعاً كَمَا خلقَهَم أَوَّلَ مَرَّةٍ، ويَحْشُرُهم جَمِيعاً في مَكَانٍ واحدٍ من أَوَّلِهم إلى آخرِهم، ويُحاسِبُهم على أَعمالِهم، وتُخرجُ لهم كُتبُهم التي كُتِبتْ عليهم في الدُّنْيا، فالمُؤمِنُ يُعْطَى كِتَابَه بيَمِينِه، والكَافِرُ يَعطَى كِتَابَه

بشِمَالِهِ وَرَاءَ ظَهرِه ـ والعِياذُ باللهِ ـ إهانةً له.

وكلُّ هَذَا وغيرُه مِمَّا يَكونُ في اليَومِ الآخِرِ: من وَزْنِ الأَعمالِ، ومن الحَوْضِ، والصِّراطِ، والجَنَّةِ والنَّارِ، وكلِّ ما أَخبرَ اللهُ تعَالى به أَو أَخبرَ به رسولُه ﷺ ممَّا يكونُ في اليَومِ الآخِرِ، فالإِيمانُ به رُكنٌ، لا يَكُونُ العَبْدُ مُؤْمِناً مع التَّكذِيبِ به.

ويَدْخُلُ في ذَلِكَ ـ أَيضاً ـ ما يَكُونُ بعْدَ الموت من عَذَابِ القَبْرِ أَو نَعِيمِهِ. وغَيرِ ذلِكَ ممَّا يكونُ بَعْدَ الموت، إِلى أَنْ يَسْتَقِرَّ أَهلُ الجنَّة في الجنَّةِ وأَهلُ النَّارِ في النَّارِ.

فَمَنْ جحدَ البَعْثَ كفرَ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: ٧] وكَذلِكَ مَن أَنكرَ ما ثَبَتَ بالضرورة مِن أُمورِ الآخِرَةِ، فإِنَّه يكونُ كَافِراً، فَمنْ أَنكرَ الجنةَ أَو النَّارَ، أَو أَنكر الحِسَابَ، أَو إِعطاء الصَّحائِفِ، أَو أَنكرَ وَزْنَ الأَعمالِ؛ فهو كافِرٌ. فلابُدَّ من الإِيمانِ باليوم الآخِرِ، وبكلِّ ما يَجْرِي فيه مما صَحَّ الخبرُ به عن اللهِ جلَّ وعَلا أَو عن رسولِه ﷺ.

الرُّكْنُ السَّادِسُ: الإِيْمانُ بالقَدَرِ، وهو: أَنَّ كلَّ ما يَجْرِي في هَذا الكَوْنِ من خيرٍ أَو شَرٍّ، أَو كُفْرٍ أَو إِيْمانٍ، أَو مرضٍ أَو

صِحَّةٍ، أَو غِنىً أَو فقرٍ، أَو شِدَّةٍ أَو يُسْرٍ، فإِنَّه بتقديرِ اللهِ وعِلْمِهِ. فاللهُ عَلِمَ كلَّ شيءٍ، وكَتَبه في اللَّوحِ المحفوظِ، وشَاءَه، وخَلَقَه وأَوجدَه سُبحانَه وتعالَى. فلابُدَّ أَنْ تُؤْمِن بهذِه الدَّرجاتِ الأَربعِ:

أ ـ العِلْمُ السَّابِقُ من اللهِ جلَّ وعَلا بكلِّ ما كانَ وما يَكُونُ.

ب ـ كِتابةُ ذَلِكَ كلِّه في اللَّوحِ المحفُوظِ.

جـ ـ مشِيئَةُ اللهِ لكلِّ ما يَجري وما يَقعُ، وأَنَّه لا يَقَعُ شَيءٌ إلاَّ بِمشِيئَةِ اللهِ.

د ـ أَنَّ اللهَ جلَّ وعلا خلق كل شيءٍ؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢] ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فمَنْ جَحَدَ القَدَرَ، أَو جَحَدَ شَيئاً من مَراتِبِ القَدَرِ، فإِنَّه لا يَكُونُ مُؤمناً؛ لأَنَّه جَحَدَ رُكْناً من أَرْكَانِ الإِيمانِ السِّتَّة.

وَهُنَاكَ شَعبٌ غير هذِه الأَركانِ تُسمَّى شُعَبَ الإِيمانِ، قال ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ، (أَو بِضْعٌ وسِتُّونَ) شُعْبَةً، أَعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلـٰهَ إِلاَّ اللهُ، وأَدْنَاهَا إِماطَةُ الأَذَى عن الطَّرِيقِ، والحيَاءُ**

شُعبةٌ من الإِيمانِ»(١).

وهَذِه الشُّعَبُ تختلِفُ من حيثُ أَهميتها، فمِنْها ما يَزُول الإِيمانُ بزوَالِه، ومِنْها ما يَنْقُصُ الإِيمانُ بِزَوالِهِ. ولِذَلِكَ عَدَّ العُلماءُ الأَعْمالَ من الإِيمانِ، فَقَالُوا في تَعْرِيفِه: . . . وعَمَلٌ بالجَوارِحِ . . .

وهَذِه الأَرْكَانُ ذكرَهَا جلَّ وَعَلا في القُرآنِ الكَرِيمِ في آيَاتٍ كَثِيرةٍ: مِنْها قولُه تعالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ . . .﴾ [البقرة: ١٧٧]، ذَكرَ في هَذهِ الآيةِ خَمْسَةَ أَرْكانٍ. وذَكَرَ القَدَرَ في آيةٍ أُخرى فقَال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

وكَذَلِكَ ذكرَ اللهُ هَذه الأَرْكَانَ في قولِه تَعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فهَذه أَربعةُ أَرْكَانٍ.

---

(١) أخرجه البخاري مختصراً (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥)، واللفظ له.

واليَوْمُ الآخِرُ تكَرَّرَ ذِكْرُه في القُرآنِ بِكَثْرةٍ، بل إِنَّ اللهَ جلَّ وعلا يَقْرِنُ الإيمانَ بِاليَوْمِ الآخِرِ مَعَ الإِيمانِ بِه سُبحانَه وتعالى كَثيراً، مثلُ قولِه: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [المائدة: ٦٩].

وذَكَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلا الإِيمانَ بالرُّسُلِ وبِالكُتُبِ في قولِه تَعالَى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فلابُدَّ من الإِيمانِ بِهَذا كُلِّه.

ولقد مَدَحَ اللهُ سُبحانَه وتعالَى المُؤمنينَ الذين يُؤْمِنُونَ بِهَذِه الحَقَائِقِ، وأَثْنَى عَلَيْهِم، وذَكَرَ صِفَاتِهم، وكَثيراً ما يُنَادِيهم بِٱسْمِ الإِيمَانِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثُمَّ يَأْمُرهمْ أَو يَنهاهُم، كَقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]،

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧]، إلى غيرِ ذلِكَ.

وتَارةً يَذْكُرُ صِفَاتٍ من صفات المُؤمِنينَ، كَقَولِه سُبحانَه وتعالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، وَهَذه من أَعظمِ الصِّفاتِ التي خَصَّ بها المُؤمِنينَ.

وقولُه تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

﴿ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

وقولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ﴾ [النور: ٦٢].

وقَال تَعالَى واصِفاً لهم بِولايَةِ بَعضِهم بَعْضاً: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾: أي ذُكوراً وإناثاً، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾: أي: كلُّ واحدٍ وليٌّ للآخرِ بالمحبَّةِ والمُناصَرَةِ والإِعَانَةِ على الخيرِ، فهو يتولَّى أُمورَه، وينصرُه إذا أُهِينَ وأُوذِيَ، ويُعِينُه إذا احْتاجَ، ويُذكِّرُهُ إذا نَسِيَ، ويُحِبُّ له ما يُحِبُّ لِنَفسِه. فهو وليُّه، أَيْ: بينَهم وَلاَيةٌ، يعني: مَحبَّةٌ ونُصْرةٌ.

قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي:

يأمُرُ بعضُهم بعضاً بالمعْرُوفِ ويَنهاهُ عن المنكَرِ، ويأمرُون غيرَهم أيضاً من الكُفَّارِ والمُشرِكِينَ والمُنافِقينَ، يأمُرونَهم بالدُّخولِ في الإسْلامِ، ويَدْعُونَهم إلى تَوْحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ويَنْهَونَ عن المُنْكَرِ من الشِّرْكِ والكُفْرِ والمَعَاصِي والمُخالفَاتِ.

والأَمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنْكَرِ من أَعظمِ صِفَاتِ المُؤمنينَ، ولِذَلِكَ كانَ تركُ الأَمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عن المُنكرِ دَليلاً على ضَعْفِ الإِيمانِ أَو عَدمِه، كما قال ﷺ: «مَنْ رأَى مِنكُم مُنْكَراً؛ فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فبِلِسانِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ»(١)، وفي روايةٍ: «وليسَ وَرَاءَ ذَلِكَ من الإِيمانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»(٢).

قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أَيْ: يُؤَدُّونَها في أَوقَاتِها مع الجَمَاعَةِ، ويُقِيمونَها ظَاهِراً وبَاطِناً، وإِقامَتُها ظَاهِراً تَكُونُ بأَداءِ شروطِها وأَرْكَانِها وَوَاجِبَاتِها ومُسْتَحبَّاتِها، ويُقِيمُونَها بَاطِناً بالخُشُوعِ وحُضُورِ القَلْبِ، وبِهذِهِ الإِقَامَةِ مَدَحَهُم اللهُ بقولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢]،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٠).

وإنمَا قَال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يَقُلْ: يُصَلُّونَ؛ لأَنَّه ليسَ المَقْصُودُ بِالصَّلاةِ الصُّورةَ فَقَطْ؛ بَلْ لابُدَّ أَنْ يُقِيمُوا الصَّلاةَ على حَسَبِ ما أَمَرَ اللهُ سُبحانَه وتَعالَى، لا على حَسَبِ شَهْوةِ الإِنْسَانِ ورَغْبَتِهِ، فَيُصَلِّي مَتى ما أَرَادَ، ويُصَلِّي كيفما أَرادَ. بل لابُدَّ أَنْ يصلِّيَ كما أَمرَ اللهُ.

قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: زكاةَ أَموالِهم: لأَنَّها قرينةُ الصَّلاةِ، ولا يَمنَعُهم من إِخْراجِها البخلُ والشُّحُّ، وفِي إِعطائِهِمُ الزَّكاةَ مُواسَاةٌ للفُقراءِ والمَسَاكِيْنِ.

قوله: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾: هَذا عَامٌّ في جَمِيعِ ما أَمرَ اللهُ به، أَو أَمر به رَسُولُه ﷺ. وفي هَذا دَلِيلٌ على وُجُوبِ العَملِ بالسُّنَّةِ؛ لأَنَّ مَنْ لم يعملْ بالسُّنَّةِ فإِنَّه لَيْسَ مُطِيعاً لرَسُولِ اللهِ ﷺ. فالذي يَقولُ: إِنَّني لا أَعملُ إِلاَّ بالقُرآنِ فقط!! هَذا لَيس مُؤْمِناً بالرَّسُولِ ﷺ؛ بَل ولا مُؤْمِناً بالقُرآنِ أيضاً؛ لأَنَّ اللهَ أمر في القرآن بأتباع السنةِ وطَاعةِ الرَّسُولِ ﷺ. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾: يَعُمهم اللهُ بِرَحْمَتِهِ، وإذا رَحِمَهُم سَعِدُوا سَعَادَةً لا يَشْقَوْنَ بعدَها أبداً.

وهَذِهِ الصِّفَاتُ المَذْكُورةُ للمُؤْمِنِينَ هِي مُضادَّةٌ تَماماً لِصِفَاتِ المُنَافِقِين؛ كَما قَال تَعالى عَنْهم في الآيَاتِ التي قَبْلَ هَـٰذِهِ: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٧ ـ ٦٨].

والإِيمانُ مِنَّةٌ من اللهِ جلَّ وَعَلا ومِنْحَةٌ؛ قَالَ تَعالَى؛ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، فَلِذَا لا يَضَعُهُ إلاَّ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّهُ، لأَنَّه سبحانه وتعالى حَكِيمٌ، يَضَعُ الأُمورَ في مَواضِعِها، فَلا يَضعُ الإِيمَانَ إلاَّ فِيمَنْ يَصْلُحُ لَهُ، فيَمنُّ بِهِ سُبحانَه على مَنْ يَشَاءُ. لاسيما مَنْ بذل الأسباب؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]، وقال

تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومِن ثَمراتِ الإيمَانِ ما ذَكره اللهُ سُبحانَه بِقَولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: ٢١]، وذَلِكَ أَنَّه إذا دَخلَ المُؤْمِنُونَ في الجَنَّةَ وكَانَ الآباءُ في مَنزِلةٍ، والأَولادُ في مَنزِلةٍ أُخْرَى، فإِنَّ الله يَجْمَعُ بينَهم حتَّى تَقَرَّ أَعينُ بَعضِهم بِبَعضٍ، وهَذا هو مَعنى قَولِه: ﴿ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، فَضْلاً مِنْهُ سُبحانَه بِسببِ الإِيمَانِ، وذَلِكَ من تَمَامِ النَّعِيمِ.

٤ ـ مسَائِلُ في الإِسْلاَمِ والإِيمَانِ:

المَسْأَلةُ الأُولى: الفَرْقُ بَيْنَ الإِسْلاَمِ وَالإِيمَانِ:

إذا ذُكر الإِسْلامُ والإِيْمانُ في مَوْضِعٍ واحدٍ من النُّصوصِ الشَّرعِيَّةِ أَو ذُكِرَ كلُّ واحدٍ مِنْهُما فِي مَوضِعٍ، فَقَد ذَكَرَ العُلماءُ لذلك قَاعِدَةً وهي: «أَنَّهما إِذا ٱجْتَمعَا ٱفْتَرقَا، وإِذا ٱفْتَرقَا اجْتَمعَا»، أَي: إِذا اجْتَمعا في الذِّكْرِ افترقَا في المَعْنَى، فكانَ الإِسْلامُ مَعْنَاهُ الأَعمالُ الظَّاهِرَةُ، والإِيمانُ مَعْنَاهُ الأَعْمَالُ البَاطِنَةُ، أَعمالُ القُلوبِ، كما ذَكر في حَدِيث جِبريلَ، حيث فسَّر

الإِسْلامَ بالأَعمالِ الظَّاهِرةِ، وفَسَّرَ الإِيْمَانَ بالأَعْمَالِ البَاطِنَةِ[١].

وإذا ذُكِرَ الإِسْلامُ مُنفرِداً دَخَلَ فيه الإِيْمانُ، وإذا ذُكِرَ الإِيمانُ منفرداً دَخَلَ فيه الإِسْلامُ؛ لأَنَّه لا يَصْلُحُ الإِسْلامُ إلاَّ بالإِيْمانِ، ولا يَصْلُحُ الإِيمَانُ إلاَّ بالإِسْلامِ.

هَذَا هُو الإِيمانُ في الكِتابِ والسُّنَّةِ، ومَذْهَبِ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ.

المَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: مَا يَزُولُ بِهِ الإِيمانُ بالكُلِّيةِ وما يَنْقُصُ بِهِ الإِيمَانُ.

وهَذِه مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ جِدّاً. والإِيمانُ يَزُولُ بالكُلِّيةِ بأُمورٍ، مِنْها:

أ ـ الشِّرْكُ باللهِ عزَّ وجلَّ، والكُفْرُ به، سواءٌ كانَ الكُفْرُ بالجُحودِ، أَو التَّكذِيب، أَو بالشَّكِّ، أَو بالاسْتِهْزاءِ بما أَنزلَ اللهُ، أَو بالرَّسُولِ ﷺ، أَو بالقُرآنِ أَو بالسُّنَّةِ، أَو بِشَعائِرِ الدِّينِ، أو بفعل الكفر أو النطق به، فَهَذِهِ الأُمورُ يَزُولُ بها الإِيمانُ زَوالاً كُلِّيًا، ولِهَذا تُسَمَّى نَواقِضَ الإِيمَانَ، وتُسَمَّى بِخِصَالِ الرِّدَّةِ.

---

(١) تقدم في ص٨٨.

والمُرادُ بالشِّرْكِ: الشِّرْكُ الأَكْبَرُ، وكَذَا الكُفْرُ الأَكْبَرُ، ومِثْلُه النِّفَاقُ الاعتِقَادِيُّ. فَيزُولُ الإِيمانُ بالأَقْوَالِ والأَفْعَالِ والاعتِقَادَاتِ الكُفْرِيَّةِ والشِّرْكِيَّةِ.

ب ـ ويَزُولُ أَيضاً بتركِ الصَّلاةِ؛ كما قَالَ ﷺ: «**بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ**»(١)، وقال: «**العَهْدُ الذِيْ بيْنَنَا وَبيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَها فقَدْ كفَرَ**»(٢)، ومُرادُه بالكُفْرِ هنا: الكُفْرُ الأَكْبَرُ؛ كما قال اللهُ تَعالَى عن المُجرِمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣] فالسَّبَبُ الأَوَّلُ لِدُخُولهم سَقَرَ هُو تَرْكُهم الصَّلاَةَ. فمن تَرَكَ الصَّلاَةَ مُتعمِّداً فَقَدْ كَفَرَ، سواءٌ كَانَ جَاحِداً لِوُجُوبِها أَمْ غيرَ جَاحِدٍ. أَمَّا مَنْ تَرَكَها جَاهِلاً، أَو تركَهَا نَاسِياً، أَو تَرَكَها نَائِماً أَو تَرَكَها بِزَوَالِ عَقْلِهِ، فهَؤُلاءِ لا تَشْمَلُهم نُصوصِ الوَعِيدِ على تَرْكِهَا.

جـ ـ كَذَلِكَ يَزُولُ الإِيمَانُ بِتعلُّم السِّحْرِ وتَعلِيمِه.

د ـ وَيَزُولُ الإِيمانُ بِٱدِّعاءِ عِلْمِ الغَيْبِ الذي لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللهُ تَعالَى.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨٢).
(٢) تقدم (ص٩٤).

هـ - ويَزُولُ الإيمانُ بالحُكْمِ بغيرِ ما أَنزلَ اللهُ، إذا اعتقد أَنَّه أَحسنُ من الحُكْمِ بما أَنزَلَ اللهُ، أَو مُسَاوٍ لَهُ، أَو أَنَّه مخيَّرٌ أَنْ يحكُمَ بِهَذا أَو هَذَا، فهَذا يَكْفُرُ الكُفْرَ الأَكْبَرَ الذِي يُخْرِجُ من المِلَّةِ. وللإِيمانِ نَواقِضُ كَثِيرة ذَكرَهَا العُلماءُ في كُتُبِ الاعتِقادِ وكُتُبِ الفِقْهِ، وبعضُهم أَفردهَا بالتَّأليفِ.

أَمَّا المَعَاصِي التي هِيَ دُونَ الشِّرْكِ ودون الكفر، فهَذِهِ يَنْقُصُ الإِيمَانُ بها ولا يَزُولُ بالكُلِّية. وذَلِكَ كشُرْبِ الخَمْرِ والسَّرِقَةِ، والزِّنَا، وأَكلِ الرِّبا من غيرِ اسْتِحلالٍ لَهُ، والكَذِبُ، والغِيبَةِ، والنَّمِيمَةِ، فهَذِهِ كَبَائِرُ يَنْقُصُ الإِيمانُ بِها لكن لا يَزُولُ، يَنْقُصُ حتَّى ربَّما وَصَلَ إِلى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَو أَقلَّ من ذَلِكَ كما سبَق بَيَانُه، ولكنَّه لا يُخْرِجُ الإِنْسَانَ من الدِّينِ؛ لِقولِه سُبحانَه وتَعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقَولِه تعالَى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٠] سَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مع أَنَّهُم يَقْتُلُ بَعضُهم بَعْضاً، وقَتْلُ

المُؤْمِنِ بغيرِ حَقٍّ كَبيرةٌ من كَبائِرِ الذُّنُوبِ، ومَعَ هَذا لم يُخْرِجْهم من الإيمان. فالكَبائر التي دُونَ الشِّرْكِ تُنقِصُ الإِيمَانَ نَقْصاً ظَاهِراً لكنَّها لا تُخرِجُ صَاحِبَها من الدِّين، هَكَذا يَقُولُ أَهلُ السُّنَّةِ.

خِلافاً لِما يَقُولُه الخَوارِجُ والمُعتَزِلَةُ والمُرجِئةُ:

فالخَوارِجُ والمُعتَزِلَةُ ذَهَبُوا إلى أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبيرَةِ مُخلَّدٌ في النَّارِ، وأَنَّه خَارِجٌ من الإِيمانِ بِمعْصِيَتِه.

والمُرْجِئَةُ قَالُوا: لا يَضُرُّ مَعَ الإِيمانِ ذَنْبٌ، ولا يَنْقُصُ الإيمانُ بِالمَعاصِي، وَكِلاَ القَوْلَينِ بَاطِلٌ مُخالِفٌ للحَقِّ، وهُما قَولانِ عَلى طَرَفَيْ نَقِيضٍ.

والحقُّ هو الوَسَطُ، وهو مَذْهَبُ السَّلفِ أَهلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، وَهُو أَن يُقالَ: مُرتَكِبُ الكَبيرةِ إِنْ لم يَكُنْ مُستحِلاًّ لَها فَإِنَّه يَنْقُصُ إِيمانُه، لَكنَّه لا يَخْرُجُ من الإيمانِ، فَهُو مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمانِ، أَو يُقَالُ: هُوَ مؤْمِنٌ فَاسِقٌ: مُؤْمِنٌ بإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ بِكَبيرتِهِ، اجتَمع فيه الإِيمانُ والفُسُوقُ، هَذَا مَذْهبُ أَهلِ السَّنَّةِ والجَمَاعَةِ في مُرتَكِبِ الكَبيرَةِ. ولِذَلِكَ شَرَعَ اللهُ إِقَامَة الحُدودِ

عَلى مُرْتكِبِ بَعْضِ الجَرائِمِ الكَبِيرَةِ، فشَرَعَ حَدَّ الزِّنَا والسَّرِقَةِ، ونحوِ ذَلِكَ.

وَشَرَعَ القِصَاصَ من القَاتِلِ، وخَيَّرَ أَولياءَ الدَّم بَيْنَ أَنْ يَعْفُوا عَنِ القِصَاصِ، أَو يَقتَصُّوا، ولو كان مُرْتكِبُ القَتْلِ كَافِراً بذلِكَ، لوجبَ قتلُه على كُلِّ حالٍ، ولا يُفوَّضُ الأَمْرُ إِلى أَولياءِ الدَّم؛ لأَنَّ المُرتَدَّ يَجِبُ قَتْلُه، ولو عَفَى عنْه الخَلْقُ جَمِيعاً. وإِذا قُتِلَ القاتِلُ فإِنَّه يُغسَّلُ ويُكفَّنُ ويُصلَّى عليه، ويُدْفَنُ في مَقابِرِ المُسلِمينَ، لأَنَّه مُسْلِمٌ.

كَذَلِكَ الزَّانِي إِذَا كَان الزاني ثَيِّباً يُرْجَمُ بِالحِجَارَةِ حتَّى يَموتَ، فإِذا رُجِمَ ومَاتَ، فإِنَّه يُغسَّلُ ويُكفَّنُ ويُصلَّى عَليهِ ويُدفَنُ في مَقَابِرِ المُسْلِمينَ.

كَذَلِكَ إِذا كانَ الزاني بِكراً فإِنَّه يُجْلَدُ ويُعامَلُ مُعَامَلَةَ المُسْلِمينَ، فَلا يَنْفَسِخُ نِكاحُهُ من زَوجَتِهِ، ولا يُؤْخَذُ مالُه، لكنَّه مع إِيمانِهِ يَكونُ فَاسِقاً بِزناهُ.

كَذَلِكَ القَاذِفُ الذي يَقذِفُ الأَبرياءَ بالزِّنَا، هذَا يُجلَدُ ثَمانِينَ جَلْدَةً، ويَثْبُتُ عليه وصْفُ الفِسْقِ، كما نَصَّ القرآنُ على

ذَلِكَ: ﴿ . . . وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ [النور: ٤] لكنْ لا يُعَامَلُ مُعامَلةَ الكُفَّارِ، وهذا يدلُّ على أنَّه مُسلِمٌ.

كَذلِكَ شَارِبُ الخَمْرِ يُجلَدُ، كما جَلَد النبيُّ ﷺ في الخَمْرِ، وأَجمعَ الصَّحابةُ بعدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ على أنَّه يُجلَدُ ثَمانِينَ جَلْدةً، ويُعامَلُ مُعامَلَةَ المُسْلِمينَ، لو مَاتَ فإنَّه يُصلَّى عليه، ومِيراثُه يَكونُ لأَقارِبِهِ. ولو ماتَ مُرتدّاً أَو كَافِراً لَصَارَ مالُه فيئاً لبيتِ المالِ، لا يَرِثُهُ أَقارِبُه.

وكلُّ المَعاصِي تُنْقِصُ الإِيمانَ، ولكنَّ بعضَها ليسَ عليه حدٌّ في الدنيا؛ بل عَليْه وعيدٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، كالكَذِبِ، والغِيبَةِ والغِشِّ في البَيْعِ والشِّراءِ، وأَكْلِ الرِّبا إذا لم يَستَحِلَّهُ، أَما إِن ٱستحلَّهُ فهو كافِرٌ حتَّى ولو لم يَأْكلْه؛ لأَنَّ استِحلالَ المحرَّم رِدَّةٌ وكُفْرٌ. لكن إذا أَكلَهُ وهو يَعتَقِدُ تَحرِيمَه، مثلُ أَنْ تَغلِبَهُ مَحبَّةُ المالِ والطَّمَعُ، فَهَذا يَكُونُ فَاسِقاً مُرْتَكِباً لكَبِيرةٍ من كَبائِرِ الذُّنوبِ، لكنْ ليسَ عليه حَدٌّ، وإنَّما عليه وعيدٌ شَدِيدٌ حَتَّى يَتُوبَ إِلى اللهِ سُبحانَه وتعالَى.

فَالمَعاصِي تَنْقُصُ الإِيمانَ إِذَا كانتْ دُونَ الشِّرْكِ، سَواءٌ

كَانتْ كَبائِرَ أَم صَغَائِرَ. والكَبائِرُ على قِسْمَينِ: قِسْمٌ رُتِّبَ علَيه الحُدودُ، وقِسْمٌ رُتِّبَ عَليه الوَعيدُ وَليسَ فيه حَدٌّ. والمَعاصِي في نَقْصِها للإيمانِ تَتفاوَتُ: بَعضُها يَنْقُصُ الإيمانَ نَقْصاً كَثِيراً، وبعضُها دونَ ذَلِكَ، وإذا تابَ إلى اللهِ جَلَّ وعَلاَ توبةً صَحِيحَةً غفَرَ اللهُ له ذَنبه، ومحاهُ عَنْه؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].
وباللهِ التَّوفيقُ.

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ
بيَانُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في القُرْآنِ الكَريمِ

١ - تمهيـــد :

المُنَاسَبةُ بين هذا المبحثِ وما سبقه: أَنَّا تكلَّمنا عن الإِسْلامِ والإِيمانِ، فلابُدَّ من الكَلامِ عما يُضَادُّهُما ويُخَالفُهما من الكُفْرِ والشِّرْكِ؛ لأَنَّه لا يَكْفِي أَنْ يَعرِفَ الإِنْسانُ الحقَّ فقطْ؛ بلْ لابُدَّ أَن يَعْرِفَ الحَقَّ ويَعرِفَ ما يُضَادُّهُ، لئلَّا يقعَ فيهِ. فما وَقَعَ كثيرٌ من النَّاسِ في الكُفْرِ والشِّرْكِ إِلاَّ بسببِ الجَهْلِ بهما، وعَدَمِ العِنايَةِ بِمعرِفتِهما.

واللهُ جَلَّ وعَلا كما أَنَّه بيَّن الإِسْلامَ والإِيْمانَ، ووضَّحَهما لِعبادِهِ، كَذلِكَ بيَّنَ الكُفْرَ والشِّرْكَ من أَجلِ الحَذَرِ مِنهُما واجْتِنابِهما، ولأَنَّ الكُفْرَ والشِّرْكَ وَقَعَ فِيهِما سوءُ فَهْمٍ وخَطأٌ من كثيرٍ من النَّاسِ؛ بل وكثيرٍ ممن يَدَّعُون العِلْمَ يَظُنُّونَ أَنَّ الكُفْرَ هو مجرَّدُ الجُحودِ والتَّكذِيبِ فقطْ، مع أَنَّ الجُحودَ والتَّكذِيبَ نوعانِ

من أَنْواعِ الكُفْرِ. كما فَسَّروا الشرك بأنه الشرك في الربوبية أو قصروه على عبادة الأصنام.

وكثيرٌ ممَّن يدَّعونَ العِلمَ غَلِطُوا في معنى الشِّرْكِ، فَقَالُوا: الشِّرْكُ هُوَ: الاعتِقادُ بأَنَّ أَحداً يَخْلُقُ ويَرزُقُ ويُدَبِّرُ مع اللهِ سُبحانَه وتَعالَى. فَيَقْصُرونَه بِذَلِكَ على الشِّرْكِ في الرُّبُوبِيَّةِ فَقَطْ، مع أَنَّ الشِّرْكَ الخَطِيرَ الذي جَاءَت الرُّسُلُ بإِنْكارِهِ هو الشِّرْكُ في الأُلُوهِيَّةِ، في تَوْحِيدِ العِبَادَةِ، وليسَ مَقْصُوراً على الشِّرْكِ في الرُّبوبِيَّة بل إنّ الشِّرْكَ في الرُّبُوبيَّة لا يَكَادُ يَقَعُ مِنْ أَحَدٍ، فغالبُ الأُمَمِ مُعْتَرِفُونَ بِتَوْحِيد الرُّبُوبِيَّةِ؛ وإِنَّما حَصَلَ الخَطأُ والغَلَطُ والمخالفةُ في تَوْحِيدِ العِبَادَةِ.

وبَعْضُهم فَسَّرَ الشِّرْكَ بأَنَّه: عِبادَةُ الأَصْنَامِ فقط، ولا يَجْعَلُ منه عِبادَةَ الأَولياءِ والصَّالِحينَ. وهذا غَلَطٌ؛ فإِنَّ كَثِيراً من المُشْرِكِينَ لا يَعْبُدونَ الأَصْنَامَ، وإِنَّما يَعْبُدونَ الأَوْلِياءَ والصَّالِحينَ ويَتَّخِذونَ قُبورَهُم مَسَاجِدَ، ويَسْتَغِيثُونَ بهم. إِلى غيرِ ذَلِكَ.

٢ ـ بيَانُ مَعْنَى الكُفرِ لُغَةً وشَرْعاً :

الكُفْرُ في اللُّغَةِ يُطْلَقُ ويُرادُ به: سَتْرُ الشَّيءِ، كَفَرَ كَذَا، أَي: سَتَرَهُ، ومِنْه سُمِّي الزَّارِعُ كَافِراً؛ لأَنَّه يُخْفِي البُذُورَ في الأَرْضِ ويَدْفِنُها. فالكُفْرُ في اللُّغَةِ هو السَّتْرُ.

وقد جَاءَ في تَفْسِيرِ قَولِهِ تَعالَى: ﴿ . . . يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: ٢٩] أَنَّ المرادَ بالكُفَّارِ: الزُّرَّاعُ، والمَشْهورُ أَنَّ المرادَ بالكُفَّارِ: أَصْحَابُ الكُفْرِ المِلِّيِّ: وأَنَّه لا يُبْغِضُ الصَّحَابَةَ إلاَّ كَافِرٌ. هَذا هو المَشْهُورُ.

وفي قولِهِ تعالَى: ﴿ . . . كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، قَالُوا: المرادُ بالكُفَّارِ هُنَا الزُّرَّاعُ، يُعجَبُونَ بالنَّباتِ الذي يُنبتُه اللهُ سُبحانَه وتَعالى. وهَذا كُفرٌ لُغويٌّ.

أَمَّا الكُفْرُ في الشَّرْعِ فهو: ضِدُّ الإيمانِ، وهُوَ: جَحْدُ الدِّينِ الحَقِّ وسَتْرُهُ. سُمِّي كُفْراً لأَنَّ فِيه سَتْراً للحَقِّ وجَحْداً له.

٣ ـ أَقْسَامُ الكُفْرِ وأَنواعُه :

الكُفْرُ قسمانِ في الأَصْلِ: كُفرٌ أَكبرُ مَخْرِجُ من المِلَّةِ، وكُفرٌ أَصغَرُ لا يُخرِجُ من المِلَّةِ. والكُفْرُ الأَكبرُ أَنواعٌ كَثِيرةٌ منها:

أَوَّلاً: كُفْرُ الجُحودِ، وذَلِكَ بأَنْ يَكُونَ عِندَهُم مَعرِفةٌ للحَقِّ

في قُلوبِهم ويَقِينٌ به، لكنْ يَجْحدُونَه ظَاهِراً، إمَّا عِناداً أو تكَبُّراً، وإمَّا لأَجلِ طَمَعٍ في رِئَاسَةٍ أَو غيرِ ذَلِكَ. وعَلى هذا غَالِبُ الكُفَّارِ؛ كَمَا قَالَ تَعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، فَأَخبرَ أَنَّهم استَيْقَنتْها أَنْفُسُهم، ولكنْ جَحَدُوهَا ظُلماً وعُلُوًّا، أي من أَجلِ الظُّلمِ والعُلوِّ على النَّاسِ. فهَذا يُسمَّى كُفْرَ الجُحودِ.

وقَالَ مُوسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِفرعَوْنَ: ﴿... لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] فَعَلِم فِرْعَونُ أَنَّ ما جاءَ به مُوسَى هو الحَقُّ، ولكِنَّه يَتظَاهَرُ بإِنْكارِهِ ظُلْماً وعُلُوًّا، وإِبْقَاءً على مُلْكِهِ كَما يَزْعُمُ، ولِهَذا قال له الملأُ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] من أجلِ هَذَا جَحَدَ الحقَّ فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فهُو يَكْذِبُ في هَذا، لأَنَّ العُقلاءَ يُقرِونَ جَمِيعاً بأَنَّ هَذَا الخَلْقَ لَه خَالِقٌ مُدبِّرٌ، وأَنَّ فِرعَونَ لم يَخْلُقْ شَيئاً، ولم يدبِّرْ شَيئاً، وليسَ له

ربُوبِيَّةٌ. وإنما الرُّبُوبِيَّةُ للخَالِقِ سُبحانَه وتَعالى، ولكنَّ الذِي حَملَه على هَذَا: الكِبرُ والإِبْقَاءُ على مُلْكِهِ، وهَذا كُفْرُ الجُحودِ.

ثَانِياً: كُفْرُ التَّكذِيبِ، وذَلِكَ كَما في قَولِه تَعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، سَمَّاهُم كَافِرينَ بِسَببِ أَنَّهم كَذَّبوا بآيَاتِ اللهِ تَعالى، وكَذَّبُوا بالحَقِّ لمَّا جَاءَهُم، ولَمَّا جَاءَهم رسولُ اللهِ ﷺ كَذَّبُوه وقَالُوا: سَاحِرٌ كَذَّابٌ، كَذَّبُوا محمَّداً ﷺ، كَما كذَّب غيرُهم من الأُمَمِ رُسُلَهم؛ قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١] وقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠] هَذَا كُفْرُ التَّكْذِيبِ.

ثَالِثاً: كُفْرُ الشَّكِّ والظَّنِّ، بأَنْ يَكونَ شَاكّاً فِيما جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، ويَظُنَّ أَنَّهم عَلى غَيرِ حَقٍّ، وذَلِك كَما في قولِه سُبحانَه وتَعالَى في قِصَّةِ الرَّجُلَيْنِ: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾

يَعنِي: بُسْتَانَه الذي فِيه الأشْجَارُ والأنْهارُ فأُعجبَ به، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾: شَكَّ في اليَوْمِ الآخِر، وشَكَّ في البَعْثِ، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦]، يَقُولُ: إنْ بُعِثتُ - يَعني: هَذا احتِمالٌ عنده - فأَجِدُ في الآخِرَةِ أَحْسَنَ من هَذِه؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى ما أَعْطَانِي هَذِه الجَنَّةَ في الدُّنْيا إلاَّ لِكَرامَتي عَليهِ، ومَنزِلَتي عِنْدَهُ، فإِذا بُعِثْتُ، عَلى فَرْضِ وجُودِ بَعْثٍ بَعْدَ المَوْتِ، إذا بُعِثْتُ سَأَجِدُ خيرَ مُنْقَلبٍ عِندَ الله. وهذا منه شَكٌّ والعِياذُ باللهِ في البَعْثِ وهَذا كُفْرٌ كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، قال له: ﴿أَكَفَرْتَ﴾؛ لأَنَّ مَنْ شَكَّ أَو ظَنَّ وبَنى عَقِيدَتَه على الظَّنِّ والشَّكِّ فَهُو كَافِرٌ؛ لأَنَّ الإِيمانَ باليَوْمِ الآخِرِ وغَيرِه من أَرْكَانِ الإِيْمانِ لابُدَّ فيه من اليَقِينِ، وإِلا يَكونُ الإِنْسَانُ كَافِراً.

رَابِعاً: **كُفْرُ الإِعْرَاضِ**، أَي: الإِعْرَاضُ عن دِينِ اللهِ لا يَتعلَّمُه ولا يَعْمَلُ به؛ قَالَ تعالَى: ﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ سَمَّاهُمْ كَافِرِينَ لإِعْرَاضِهم عَمَّا أُنذِرُوا بِه، فَهُم مُعرِضُونَ لا يَهتمُّونَ، لا يَتعلَّمُونَ

الدِّينَ ولا يَعملَون بِه، ولو تَعلَّمُوا لاَ يَعْمَلُونَ به. هَذا هو كُفْرُ الإعْرَاضِ.

خَامِساً: كُفْرُ النِّفَاقِ ـ والعِياذُ باللهِ ـ النِّفَاقِ الاعتِقَادِيِّ. فَالمُنافِقُون كُفَّارٌ يُظْهِرُونَ الإِسْلامَ لَكِنَّهُم كُفَّارٌ في قُلُوبِهم وعَقَائِدهِم، يُظْهِرُونَ الإيمانَ ويُبْطِنُونَ الكُفْرَ. واللهُ سُبحانَه وتَعالَى بيَّن حَال المُنافِقينَ فقال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ١ ـ٣] آمَنُوا بأَلسِنَتهم وكَفَرُوا بِقُلوبِهم، والعِياذُ باللهِ. ﴿... فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣] هذا هُو النِّفاقُ، أَنْ يَتَظَاهَرَ الإِنْسَانُ بالإِسْلَامِ ويُبْطِنَ في قَلْبِهِ الكُفْرَ، وهُو إِنَّما يُظْهِرُ الإِيْمانَ نِفَاقاً مِن أَجلِ أَنْ يَعيشَ مع المُؤْمِنينَ؛ لأَنَّه لا يَقْدِرُ على مُجابَهةِ المُؤْمنينَ، ولايَقْدِرُ عَلَى مُفارَقَتِهم، فاضْطُرَّ إِلى أَنْ يُنَافِقَ، والعِياذُ باللهِ.

٤ ـ أقسام النفاق:

والنِّفاقُ يَنْقَسِمُ إِلى قِسْمَيْنِ: نِفَاقٌ اعتِقَادِيٌّ، وهُوَ كُفْرٌ،

ونفاقٌ عمليٌّ لَيْسَ اعتِقَادِيًّا، يكونُ الإِنْسَانُ في قَلْبِهِ مُؤْمِناً وفي أَغلبِ أَعمالِهِ مُؤْمِناً، لكنْ يَقُولُ بعضَ أَقوالِ المُنَافِقِينَ، أَو يتَّصِفُ بِبَعْضِ صِفَاتِهم. فهَذَا نِفَاقٌ عَمَليٌّ، وهو نِفَاقٌ أَصغرُ، لكنْ إذا كَثُرَ في الإِنْسَانِ ربَّما يَجرُّه إلى النِّفَاقِ الأَكْبَرِ؛ قال ﷺ: «آية المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[(١)]، وفي رِوايَةٍ: «وَإِذا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ»[(٢)]. وفي رواية زيادة: «وإِنْ صَامَ وصلَّى وزعمَ أَنَّه مسلمٌ»[(٣)].

وقد يَصْدُرُ من بَعْضِ المُؤْمنينَ بَعضُ صِفَاتِ النِّفاقِ فيَكُونُ فِيْهم نِفَاقٌ أَصْغَرُ، ويَجْتَمِعُ فِيهم إِيمانٌ ونِفَاقٌ، كما قال ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيه كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا»[(٤)]، فَقَولُه: «كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً» يَدُلُّ عَلى أَنَّ خِصَالَ النِّفَاقِ إذا كَثُرتْ ربَّما أَخْرَجَتْه إِلى

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريج هذا الجزء من حديث عبدالله بن عمرو المتفق عليه.
(٣) أخرج هذه الزيادة مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب (٢٥)، رقم(٥٩/١٠٩)، [١/٢٣٦].
(٤) متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو، وقد تقدم تخريجه.

النِّفَاقِ الأَكبرِ ، فيَكونُ مُنافِقاً خَالِصاً ، فَإِذا كانَ فيه وَاحِدةٌ مِنها فَلا يَكُونُ مُنافِقاً خَالِصاً وَإِنَّما يَكُونُ فِيهِ شَيءٌ مِنَ النِّفَاق . وعَلى كُلِّ حَالٍ فالنّفَاقُ أَمرُه خَطِيرٌ جِدًّا .

هذَا هُو الكُفْرُ، وهَذِه بَعضُ أَنواعِهِ المهمَّة، كما بيَّنها اللهُ سُبحانه وتَعالى في القُرآنِ الكَرِيم .

فأَمَّا الكفرُ الأَصْغرُ فهُو بعضُ الذُّنوبِ التي سَمَّاهَا رسولُ اللهِ ﷺ كُفْراً ولَمْ تَصِلْ إلى الكُفْرِ الأَكْبَرِ، مِثْلُ قولِه ﷺ: «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»، فالمرادُ بالكُفْرِ هُنا: الكُفرُ الأَصْغَرُ؛ لأَنَّ قتْلَ المُؤْمِنِ كَبيرةٌ من كَبائرِ الذُّنوبِ، لكنَّه لا يَخرجُ به صَاحِبُهُ من الإِسْلامِ، لكنْ عندَه كفرٌ أَصْغَرُ؛ والدَّلِيلُ على ذَلِكَ أَنَّ الله جَلَّ وَعَلا قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]: ثم قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

فأَخبرَ عن المُقْتَتِلينَ بأَنَّهم مُؤمِنُونَ وأَنَّهم إِخْوةٌ، فَدَلَّ على

أَنَّ القَتْلَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَإِنْ كَانَ كَبِيرةً وجَرِيمةً عَظِيمةً إلا أنَّه لا يُخرِجُ القَاتِلَ من الإيمانَ إلى الكُفْرِ.

وكَما في قَولِه ﷺ: «**أَرْبَعٌ في أُمَّتِي من أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْركُونَهُنَّ: الفَخْرُ بالأَحْسَابِ، والطَّعْنُ في الأَنْسَابِ، والاسْتِسْقَاءُ بالنُّجومِ، والنِّيَاحَةُ**»[(١)] [على المَيِّتِ]، سَمَّاهَا من خِصَالِ الجَاهِلِيَّةِ، والجَاهِلِيَّةُ كُفْرٌ، ولكنْ لو كَانَ فِيه خَصْلَةٌ مِنْها فَلا يُقَالُ: إنَّه كَافِرٌ الكُفْرَ المُخْرِجَ من المِلَّةِ، وإنَّما يُقالُ: هَذا من الكُفْرِ الأَصْغَرِ.

فليسَ كُلَّ مَنْ كَانَ فِيهِ شَيءٌ من أُمورِ الجَاهِلِيَّةِ يَكُونُ كَافِراً كُفْراً أَكبرَ، لكنْ يَكُونُ فِيه خَصْلَةٌ من خِصَالِ الجَاهِلِيَّةِ، ويَكُونُ كُفْراً أَصغرَ؛ كما قَال ﷺ لبعضِ أَصحابه: «**إِنَّكَ امرؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»، وهَذا صَحَابِيٌّ جَليلٌ، لكنْ لَمّا قَالَ كَلِمَةً عَيَّرَ بها أَخَاهُ فقالَ لَه: يا ابن السوداء، قال ﷺ: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ ٱمْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»[(٢)]، فَدلَّ على أَنَّ خِصَالَ الجَاهِلِيَّةِ هِي نَوْعٌ مِنَ الكُفْرِ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري: كتاب الجنائز، باب (١٠)، رقم (٩٣٤) [٣/ ٤٧٥].

(٢) متفق عليه بنحوه من حديث المعرور بن سويد:

=

لكنَّها لا تُخْرِجُ من المِلَّةِ، لَكِنَّها خَطِيرَةٌ؛ لأَنَّ تَسْمِيَتَها كُفْراً يَدُلُّ على خُطُورَتِها.

ومِنَ الكُفْرِ الأَصْغَرِ: قولُه ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(١)، «كفر» يعني: الكُفْرَ الأَصْغرَ الذي لا يُخْرِجُ من المِلَّةِ، و«أَشْرَكَ» الشِّرْكَ الأَصْغَرَ.

٥ ـ مَعْنَى الشِّرْكِ:

وَأَمَّا الشِّرْكُ فهو: «صَرْفُ شَيءٍ من أَنواعِ العِبَادَةِ لغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ».

والعِبادَةُ أَنواعٌ كَثِيرةٌ: كالدُّعاءِ، والاستِعانَةِ، والاستِغَاثَةِ، والذَّبحِ، والنَّذْرِ، والخَوْفِ، والرَّغْبَةِ، والرَّهْبَةِ، والرَّجَاءِ.

وهِي عِباداتٌ قَولِيَّةٌ، وعِباداتٌ فِعْلِيَّةٌ، وعِباداتٌ قَلْبِيَّةٌ.

= البخاري: كتاب الإيمان، باب (٢٢)، رقم (٣٠)، [١/ ١١٥].
ومسلم: كتاب الأيمان، باب (١٠)، رقم(١٦٦١)، [٦/ ٨٣٤].

(١) أخرجه من حديث ابن عمر: أبو داود: كتاب الأيمان، باب (٥)، رقم (٣٢٥١)، [٣/ ٣٧١].
والترمذي: كتاب النذور، باب (٩)، رقم(١٥٣٩)، [٤/ ١١٠]، واللفظ له.

فـالخَـوْفُ والـرَّجَـاءُ، والـرَّغْبـةُ والـرَّهْبَـةُ، والخَشْيَـةُ، والتَّوَكُّلُ، والمَحَبَّةُ، هَذه عِبادَاتٌ قلبيةٌ.

والصَّلاةُ والصِّيامُ عباداتٌ بَدَنِيَّةٌ. والذِّكْرُ والدُّعاءُ عباداتٌ قَوْليَّةٌ.

والقولُ الجامعُ في معنى العِبادةِ أَنَّها: اسمٌ جامِعٌ لكلِّ ما يحبه اللهُ ويرضاهُ من الأقوالِ والأعمالِ، الظاهرة والباطنة.

فَمَنْ صَرَفَ شَيْئاً من أَنْوَاعِ العِبَادَةِ لغيرِ الله عزَّ وجلَّ فإِنَّه يَكونُ مُشْرِكاً بالله عزَّ وجلَّ.

٦ ـ أَقسَامُ الشِّرْكِ وأَنواعُه:

والشِّرْكُ في الأَصْلِ نَوعانِ: شِرْكٌ أَكبرُ، وشِرْكٌ أَصغَرُ.

والشِّرْكُ الأَكْبَرُ أَنواعٌ كثِيرةٌ ذَكرهَا اللهُ جلَّ وعلا في القُرآنِ، فمَن دَعا غيرَ اللهِ فهو مُشْرِكٌ؛ قالَ تَعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، وقَال تَعالَى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مخلصين له الدُّعاء ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤] فَدُعاءُ الأَوْلِياءِ والصَّالِحينَ والجنِّ، والاستِنجادُ بِهم عند الشَّدائِدِ شِرْكٌ أَكبرُ، وإِن كَانَ هَذا الدَّاعِي

لهم يُصَلِّي ويَصُومُ ويدَّعي، الإِسْلامَ، فإِنَّه بدُعائِهِ لغير الله تَحبطُ أَعمالُه.

وكَذلِكَ الصَّلاةُ لا تُصْرَفُ إلاَّ للهِ؛ قَالَ تعالَى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ٢].

وكَذَلِكَ الذَّبْحُ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ قَرَنَ النَّحرَ مع الصَّلاةِ، فدَلَّ على أَنَّهما من أَعظمِ أَنواعِ العِبادَةِ وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] فالصَّلاةُ والذَّبْحُ عِبادتَانِ عظيمتان.

الصَّلاةُ عِبادةٌ بَدَنِيَّةٌ، والذَّبحُ عِبادةٌ مَاليةٌ، والزَّكاةُ عِبادةٌ مَالِيَّةٌ.

أَما الحجُّ فَعِبادةٌ بَدَنِيَّةٌ وعِبادَةٌ مَاليةٌ، يَجمَعُ بَينَهُما.

ومن العِبادَات: التَّوَكُّلُ؛ قَال تعالَى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، قَصَرَ التَّوكُّلَ على اللهِ جَلَّ وعَلاَ؛ لأَنَّ تَقْدِيمَ المَعْمولِ يدُلُّ عَلَى الاختِصَاصِ.

فقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾. أي: لاَ على غَيرِه، فالتوكُّلُ

عِبادةٌ، ومَنْ توكَّلَ على غيرِ الله فقد أَشرَكَ.

وكَذلِكَ الخَشْيَةُ والخَوْفُ؛ قَالَ تَعالَى: ﴿ . . . فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] فَالخَوْفُ والخَشْيَةُ عِبادتَانِ يَجب أَنْ تكونَا لله عَزَّ وجلَّ.

والنَّذرُ عِبَادةٌ، فمَنْ نذرَ للقبرِ، أَو نذَرَ للميِّتِ، أَو نذر للجِنِّ، يكونُ مُشْركاً؛ لأنَّه صَرَفَ نوعًا من العِبادةِ لغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وقد قال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»، وكذلك حديثُ الرَّجُلينِ اللَّذَيْنِ أَخبرَ عنْهما النبيُّ ﷺ فيما روي عنه أنه قال: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ في ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ في ذُبَابٍ» قَالُوا: وكَيف ذَلِك يا رَسولَ الله؟! قال: «مَرَّ رَجُلانِ على قومٍ لَهُم صَنَمٌ لا يَجُوزُه أَحدٌ [أي لا يتعدَّاه أَحدٌ] حَتَّى يقرِّب له شَيئاً، فَقَالُوا لأَحِدِهما: قَرِّبْ، قال: ما كُنْتُ لأقَرِّبَ لأَحدٍ شيئاً دونَ اللهِ عزَّ وجلَّ [امتنَعَ عن الشِّركِ]، فَقَتَلُوهُ، فدخَلَ الجَنَّةَ، وقَالُوا للآخَرِ: قَرِّبْ، قال: ما عِنْدِي شَيءٌ أُقرِّبْه، قَالُوا؛ قَرِّبْ ولَو ذُباباً، فَقَرَّبَ ذُبَاباً فَخلَّوا سَبيلَه، فَدَخَلَ النَّارَ»(١)؛ لأَنَّه وافقَهُم على التقرُّبِ

(١) روي مرفوعاً مرسلاً من حديث طارق بن شهاب والصواب وقفه على سلمان =

لِغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ولم يُمانِعْ، فالعِبرَةُ ليستْ بالذُّبابِ، وإنّما العِبرَةُ بالمَوافقَةِ على الكُفرِ.

ومن أَنواعِ الشِّرك الأَكبَرِ: الشِّرْكُ في الطَّاعَةِ، في تَحليلِ الحَرامِ وتَحرِيمِ الحَلالِ؛ قَالَ جَلَّ وعَلاَ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، فمَنَ أَطاعَ مخلُوقاً في تَحْلِيلِ الحَرامِ وتَحرِيمِ الحَلالِ، وَهُوَ يَعرفُ أَنَّه حرَّمَ الحَلالَ أَو أَحلَّ الحَرامَ، فَوافَقَهُ على ذَلِكَ فإِنَّه يَكُونُ مُشرِكًا، الشِّرْكَ الأَكبرَ. وهَذا هُو شِرْكُ الطَّاعَةِ. أَما إِذا كانَ لا يَعْلَمُ، بل أَطَاعَه ثِقَةً به وهُو لا يَعْلَمُ أنَّه حَلَّلَ الحَرامَ أَو حرَّمَ الحَلالَ، فهذَا لا يُعَدُّ من الشِّرْكِ الأَكْبَرِ.

ومن أَنواعِ الشِّرْكِ الأَكبرِ: السِّحْرُ، فَالسَّاحِرُ مُشرِكٌ؛ لأَنَّه أطاعَ الشَّيْطَانَ. وكَذَلكَ الكَاهِنُ؛ لأَنَّه أَطاعَ الشَّيَاطِينَ وخَضَعَ

= الفارسي ـ رضي الله عنه ـ، كمارواه: أحمد في الزهد ص٨٤، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٣)، وابن أبي شيبة في المصنف: كتاب السير، باب (٨٥) رقم (٣٣٠٢٨)، [٦/ ٤٧٧].

لهم.

ومِن ذلك الذَّبْحُ لغيرِ اللهِ لِقَصْدِ العِلاجِ، كَما يَفعَلُونَ عند السَّحَرةِ يأمرونَهم بأَنْ يَذْبَحُوا مِن أَجلِ شِفَاءِ أَمراضِهم، فإذَا استَجابَ وذبحَ لغير اللهِ يَكونُ مُشْرِكاً الشِّرْكَ المُخرِجِ من المِلَّةِ؛ لأَنَّ اللهَ لم يجعلِ الدَّواءَ فيما حرَّمَ، بلْ هَذَا حَرامٌ شَدِيدُ التَّحرِيمِ، وأَعظمُ المحرَّماتِ الشِّرْكُ، فإِذَا وَافَقَ على الذَّبح عَنْدَ السَّحَرَةِ طَمَعاً في الشِّفاءِ فإِنَّه يَكُونُ مُشْرِكاً خَارِجاً من المِلَّةِ، ولو ذَبَحَ شَيْئاً يَسِيراً ولو دَجاجةً، فَضْلاً عن الذي يَذبحُ الأَغْنامَ أَو الإِبلَ أَو البَقَرَ فَالذَّبْحُ لغيرِ اللهِ لأَيِّ سببٍ كانَ: إِمَّا لِشفَاءِ المَرضِ، أَو نُزولِ المَطَرِ، كما يَفْعَلُ بعضُ النَّاس إذا أَجْدَبُوا يَذْبَحُون لبعضِ الأَحجارِ أَو يَذبحُون للجِنِّ، يَطْلُبونَ نزولَ المَطَرِ بِهَذَا؛ فَهَذا هو الشِّركُ الأَكبَرُ.

النَّوْعُ الثَّاني من أَنواعِ الشِّرْكِ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ الذي لا يُخرِجُ من المِلَّةِ.

وهو نَوعَانِ: شِرْكٌ ظاهِرٌ، وشِرْكٌ خَفِيٌّ.

* النَّوْعُ الأَوَّلُ :

الشِّرْكُ الظَّاهِرُ: الشِّرْكُ في الأَلْفَاظِ، كأَنْ يَقُولَ: لولا اللهُ وفُلانٌ، لَولا اللهُ وأَنتَ، ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ! وَهَذا شِرْكٌ أَصْغرُ، وهُو شِرْكٌ في اللَّفْظِ ولو لم يكنْ يَعتقِدُه بِقَلْبِهِ.

وكَذَلِكَ الحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ، فهو شِرْكٌ أَصغر؛ لِقولِهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(١). شَكَّ الرَّاوِي هل قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كفر» أَو قال: «أَشركَ» على كلِّ حَالٍ هو إِمَّا شِرْكٌ أَصْغَرُ أَو كُفْرٌ أَصْغَرَ، إِلاَّ إِذا كَانَ الحَالِفُ يُعظمُ المحلوفُ بِهِ كما يُعَظِّمُ اللهَ عزَّ وجلَّ فهذَا من الشِّرْكِ الأَكْبَرِ، أَمَّا إِذا كانَ لا يُعظِّمُهُ مثلَما يُعظِّمُ اللهَ عزَّ وجلَّ، فإِنَّ هَذَا يَكُونُ شِرْكاً أَصْغَرَ.

والحَلِفُ بغيرِ اللهِ: كالحَلِفِ بالأَمَانَةِ، والحَلِفِ بالرَّسُول، والحَلَفِ بالكَعْبَةِ، والحَلِفِ بحياةِ شَخْصٍ، والحَلِفِ بأَيِّ مَخْلُوقٍ من مَخْلُوقَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ. كلّ هَذا من الشِّرْكِ، ولِهَذَا قَالَ ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ باللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(٢).

---

(١) أخرجه من حديث ابن عمر؛ أبو داود والترمذي، وقد تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر: كتاب الشهادات، باب (٢٦)، رقم(٢٦٧٩)، [٥/ ٣٥٣]، ومسلم (رقم ١٦٤٦).

النَّوْعُ الثَّانِي: الشِّرْكُ الخَفِيُّ الذِي يَكُونُ في القَلْبِ ولا يَراهُ النَّاسُ ولا يَسْمَعُونَه، إنَّما هُو شيءٌ يَقُومُ بِالقَلْبِ، وذَلِكَ شِرْكُ الرِّياءِ: أَنْ يُصَلِّيَ من أَجْلِ أَنْ يَمدَحَه النَّاسُ، أَو يَتصدَّقَ من أَجْلِ أَنْ يَمدَحه النَّاسُ. فَهُذا شِرْكٌ لا يَعلَمُه إلاَّ اللهُ جلَّ وَعَلا.

وفي هذا النَّوع قال ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكم بِما هو أَخْوفُ عَلَيكم عندِي من فتنةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ»؟ قَالُوا: بلى يا رسول اللهِ. قال: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ، فَيزيِّنُ صَلاتَه لِما يَرَى من نَظَر رَجُلٍ»(١).

فَمَنْ تَصَدَّقَ يُرائِي، أَو صلَّى يُرائِي، أَو تَعلَّم العِلْمَ يُرائِي، أَو ذَكَرَ اللهَ يُرائِي، فإنَّه قَدْ أَشركَ باللهِ شِرْكاً أَصْغَرَ، وَهُو الشِّركُ الخفيُّ الذي لا يَعْلَمُه إلاَّ اللهُ سُبحانَه وتَعالَى.

قال ﷺ: «الشِّرْك أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النّملِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْداءَ في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ»(٢)، وهَذا هُو الذي خَافَه الصَّحابَةُ ـ رَضِيَ اللهُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري: كتاب الزهد، باب (٢١)، رقم(٤٢٠٤)، [٤/ ٤٧٠].

(٢) أخرجه مرفوعاً ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره لآية البقرة (٢٢) ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ عن ابن عباس مرفوعاً.

عنهم - عَلى أَنْفُسِهِم، وهُم الصَّحَابَةُ!

٧ - وجوبُ الخوفَ والتَّحَرُّزِ من الشِّرْكِ، وبيانُ عظيمِ خَطَرِه في الدُّنيا والآخِرةِ:

وكُلَّما خَافَ الإِنْسَانُ من الشِّرْكِ اشتَدَّ تَحرُّزُه منه، وكلَّما أَمِنَ الإِنْسانُ من الشِّرْكِ وَقَع فيه، فعَلى الإِنْسَانِ ألاَّ يزكِّيَ نفسَه ويَقولَ: أَنَا ما عندي شِرْكٌ أَكْبَرُ. نَعَمْ، لكنَّ الشِّرْكَ الأَصْغَرَ محبطٌ للعمل الذي يخالطه؛ إِذْ قدْ تعملِ الأَعمالَ ولا أَجرَ لكَ فِيهَا.

فمَنْ صَلَّى يُرائي فلا أَجرَ لَه، ومَنْ تَصدَّق يُرائِي فلا أَجْرَ لَه، ومَنْ جَاهَدَ يُرائِي فلا أَجْرَ له، ومَنْ تعلَّم العِلْمَ يُرائِي فلا أَجْرَ له، بَل يَكُونُ آثِماً. فالإِنْسَانُ يَجِبُ أَنْ يخافَ من الشِّرْكِ الأَكْبَرِ ومن الشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

ولِهَذا إِبراهِيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهُو إِمامُ الموحِّدِينَ الذي كَسَّرَ الأَصْنَامَ بيدِه، وامتُحِنَ بسببِ ذلِكَ حَتَّى أُلقِيَ في النَّارِ يَقولُ في دُعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فلم يأمنْ إبراهيمُ على نَفْسه من الفِتنَةِ، وأَنْ يقعَ في الشِّرْكِ الأَكْبَرِ (عِبادةِ الأَصْنَامِ)، فمَنْ يأمَن

البَلاءَ بعدَ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟!

يَقُولُ الإمامُ ابنُ القَيِّمِ رحمهُ اللهُ تَعالى في النُّونِيَّة(١):

وَالشِّرْكَ فَاحْذَرْهُ: فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ ذَا القِسْمُ لَيْسَ بِقَابِلِ الغُفْرانِ
وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَيـ ـاً كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ
يَدعُوْهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ وَيُحِبُّـهُ كَمَحَبَّـةِ الـدَّيَّـانِ

وأَمَّا الشِّرْكُ الخفيُّ فهو كَما بيَّنه النبيُّ ﷺ بِقوله: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، فَسُئِلَ عَنْهُ، فقال: «**الرِّيَاءُ**»(٢)، نسألُ اللهَ العَافِيةَ.

وهَذَا الرِّياءُ آفةٌ خَطِيرةٌ جِدًّا. وقَد بَيَّن العَلامةُ ابنُ رَجِبٍ رحمهُ اللهُ في شَرْحِ الأَربَعِينَ: أَنَّ الرِّياءَ إذا صَاحَبَ العَمَل من أَصْلِه فإنَّه لا يُقبَلُ، أَما إِذا كَانَ العملُ أَصلُه خَالِصاً للهِ، ثم طَرأَ عليه الرياء في أَثناءِ العَمَلِ: فإنْ دفعَه الإِنْسَانُ ورجَعَ إِلى الإِخْلاصِ لم يَضُرَّه، وإِنِ استمرَّ معه: ففيه خِلَافٌ: هل يُثابُ على أَصْلِ العَمَلِ، أَو يَبْطُلُ عملُه كله؟ قَولانِ عِنْدَ أَهلِ

(١) انظر: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، المشهورة بالنونية للإمام ابن القيم [٢/ ٢٦٣] بشرح ابن عيسى الشقري.
(٢) أخرجه بمعناه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري، وقد تقدم تخريجه.

العِلْمِ[١]. فهَذا يدلُّ على خُطورةِ الرِّياءِ، وقد قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم لنَعلَمْ أَنَّ الشِّرْكَ اليومَ قد خفي أَمرُه على كَثيرٍ من النَّاسِ، وسُمِّيَ بغيرِ ٱسْمِهِ. فهَؤلاءِ الذين يَعْبُدونَ الأَمواتَ والأَضْرِحَةَ: ويَطُوفُون بِها، ويَسْتَغِيثونَ بها، ويَدْعُونَها من دونِ اللهِ!! إِذا قِيلَ لهم: هَذا هُو الشِّركُ الأَكْبَرُ، قالُوا: لا، هَذا محبَّةٌ للصَّالِحينَ، وهذا تَوسُّلٌ إِلى اللهِ سُبحانَه وتَعالى من أَجْلِ أَنْ يَشفَعُوا لنَا عِنْدَه؛ لأَنَّهم أَصْحَابُ مَنزلةٍ ومكانَةٍ عندَ اللهِ، ونحنُ أُناسٌ مُذْنِبُونَ، فهم يتوسَّطُونَ لنا عندَ اللهِ جلَّ وعلا، ونحنُ نَعتقِدُ أَنَّهُم لا يَخْلُقُونَ ولا يَرزُقُون، ولا يُدَبِّرُوْنَ مع اللهِ، لكنَّنا ٱتَّخذنَاهُم وسَائِطَ بينَنَا وبينَ اللهِ!! فَيُسمُّونَ هذا الشِّرْكَ الأَكبرَ بغيرِ ٱسمِهِ. وهَذَا هو فِعْلُ المُشرِكِينَ الأَوَّلينَ؛ كَما بيَّنَه الله في القُرآنِ، لا جدال فيه، قَال تعالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب.

١٨]، ما قَالُوا يَخلُقُون، ويَرْزُقُون ويُحيونَ ويُمِيتُون، ويُدَبِّرُونَ؛ بل قَالُوا: هَؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عندَ اللهِ. وفي آيةٍ أُخرى يَقُولُ جَلَّ وعلا: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

ما عَبَدُوهم لأَنَّهم يَخلُقُونَهم أَو يَرْزُقُونَهم، أَو يُحيونَ أَمواتَهم، أَو أَنَّهم يَشفُونَ مَرْضَاهُم، لأَنَّهم يَعْتقِدُون أَنَّ هَذا لا يَقْدِرُ عليه إلاَّ اللهُ جَلَّ وعلا، ولكنَّهم ٱتخذُوهُم أولياء لِيُقرِّبُوهم إلى اللهِ زُلْفَى.

فالأَمْرُ خَطِيرٌ جِدًّا؛ لأَنَّ الشِّرْكَ الآنَ سُمِّيَ بغيرِ ٱسمِه تَلْبِيساً على النَّاسِ، وأَكثرُ النَّاس لايَرْجِعُون إلى القُرآنِ، مع أَنَّ القُرآنَ وَضَّحه وبيَّنه، لكنَّهم يَرجِعُون إلى أَقوالِ عُلمائِهم المُضِلِّين، وأَئمتِهم الضَّالِّينَ، ويتَّخِذُون أَقوالَهم نُصُوصاً يَسْتدِلُّون بِها، ولا يَسْتَدِلُّون بِكَلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهُو واضِحٌ في الأَمْرِ لا خَفَاءَ فيه. نسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ والسَّلامَةَ. فَهَذا هو الشِّرْكُ بِعَينِه.

واللهُ جَلَّ وعلا ـ في القُرآنِ العَظِيمِ ـ حذَّر من الكُفْرِ،

وحذَّرَ من الشِّرْكِ وبيَّنَ عاقبَةَ أَهلِهما في الدُّنْيا والآخِرَةِ، فتوعَّدَ الكافِرينَ، وأعدَّ لهم سَعِيراً؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٣-٦٨]، هَذَا وعِيدُ الكَافِرينَ، وهَذِه عَاقِبتُهم - والعِياذُ باللهِ - في الدَّارِ الآخِرَةِ.

أَما عُقوبَتهُم في الدُّنيا فإنَّ اللهَ أَباحَ للمُسْلِمينَ دِماءَهُم وأَموالَهم حتَّى يدخُلوا في الإِسْلام؛ قَالَ ﷺ: «**أُمِرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَه إِلاَّ اللهُ، فإِذَا قَالُوهَا؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهم إِلاَّ بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُم عَلى اللهِ عزَّ وجلَّ**»(١)،

---

(١) متفق عليه من حديث عمر:
البخاري: كتاب الزكاة، باب (١)، رقم (١٣٩٩)، [٣/ ٣٣١].
ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٨) رقم (٢٠)، [١/ ١٥٠].

فَالكَافِرُ مُهْدَرُ الدَّمِ، حَلالُ المَالِ، حَتَّى يَدخُلَ في الإِسْلام الذي شَرَعَه اللهُ لِعبادِهِ، وخَلَقَ الخَلْقَ من أَجْلِهِ، وهُو خَالِدٌ مُخَلَّدٌ في النَّارِ إِذا مَاتَ عَلَى الكُفْرِ، والعِياذُ باللهِ.

وقَالَ جَلَّ وعَلا عن النَّارِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال عن مصير الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١] هَؤُلاءِ هُمُ الكُفَّارُ الذين كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ واستَكْبَرُوا عَنْها، وبَقَوا على كُفْرِهم وعِنادِهم ومُعَادَاتِهم للرُّسُلِ، هَذِه عَاقِبَتُهم عندَ اللهِ سُبحانَه وتَعالَى.

وَأَمَّا الشِّركُ فَإِنَّ اللهَ سُبحانَه وتَعالَى حَذَّرَ منه غَايَةَ التَّحذِيرِ، فَقَال سُبحانَه وتَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فاللهُ جَلَّ وعَلاَ يَقُولُ لِرَسُولِه ولِمَنْ قبلَه من الرُّسُلِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ وهَذا من بَابِ

الفَرْضِ، وإلاَّ فالرَّسُولُ ﷺ وإخْوانُه من النَّبِيِّنَ عَصَمَهُم اللهُ من الشِّرْكِ، لكنْ هَذا من بَابِ تَحْذِيرِ النَّاسِ. وأَنَّ الرَّسُولَ لَو وَقَعَ منهُ ذَلِكَ لحَبِطَ عملُه، فكيفَ بِغيرِه!؟ لاشك أن حبوط عمل غيرهم من باب أولى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

فَإذا كَانَ أَيُّ نَوْعٍ من أَنواعِ الشِّرْكِ الأكبر يُحْبِطُ الأَعمالَ كُلَّها، وإِذَا كانَ الشِّرْكُ أَيْضاً يُحرِّمُ الجَنَّةَ على المُشْرِكِ ويَكونُ مأْوَاهُ النَّارَ، مقرُّه ومَسكَنُه أَبدَ الآبَادِ، والعِياذُ باللهِ، وإذا كان لا يغفره الله لمن مات عليه فَهَذا يدلُّ على خُطورةِ الشِّرْكِ، وأَنَّ الإِنْسَانَ يُخَافُ منه غَايَةَ الخَوْفِ، ويَحْذَرُ منه غَايَةَ الحَذَرِ.

٨ - الفَرْقُ بيْنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ:

بينَهما عُمومٌ وخُصوصٌ مُطلَقٌ، فكلُّ مُشركٍ كَافِرٌ، وليسَ كلُّ كَافِرٍ مُشْرِكاً؛ لأَنَّ الكُفْرَ قد يَكُونَ بالجُحودِ والتَّكذِيبِ والتَّعطِيلِ، فهذَا يُسمَّى صاحِبُه كَافِراً فقطْ، ولا يُسمَّى مُشْرِكاً؛ لأَنه لا يُؤْمِنُ بالربِّ سُبحانَه وتَعالى. أَما المُشْرِكُ فإِنَّهُ يُؤمِنُ بالربِّ، لكنَّه يَعْبُدُ معه غيرَه، هَذا هو الفَرْقُ بين المُشْرِكِ والكَافِرِ.

٩ - نَواقِضُ الإِسْلامِ :

الإِنْسَانُ قد يُسلِمُ وقد يُؤْمِنُ ويتركُ الشِّرْكَ والكُفْرَ، لكنْ تَطْرأُ عليه الرِّدَّةُ، بأَنْ يَرتكِبَ نَاقِضًا من نواقِضِ الإِسْلامِ، ومَعْرِفةُ هَذِه النَّواقِضِ مُهمَّةٌ جِدًّا. فمنِ ارتكَبَ نَاقِضاً من نَواقِضِ الإِسْلامِ؛ فإِنَّه يُوصَفُ بـ «المرتد»، وهُو: الذي يَكفُر بعدَ إِسْلاَمِه. ويَنْكُصُ على عَقِبَيْهِ، ويرتدُّ عن دِينه.

واللهُ جلَّ وعَلا حذَّر من الرِّدَّةِ بعدَ الإِيمَانِ؛ قَالَ تعالَى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [المائدة: ٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، صَارَ مِثْلَ الكُفَّارِ الأَصْلِيِّينَ.

قوله: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ ﴾ أي: الملازمون لها مُلازَمَةَ الصَّاحِبِ لِصَاحِبِه، والعياذُ بالله ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ مع

أَنَّهم كَانُوا مُسلِمينَ، لكنْ لمَّا ارتدُّوا صَارُوا مع الكُفَّار الأَصْلِيِّينَ.

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾ [النساء: ١٣٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَقَالَ النبيُّ ﷺ: «لاَ يَحِلُّ دَمُ ٱمْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وأَنِّي رسُولُ اللهِ، إلاَّ بإِحْدَىٰ ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي،

والنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَارِكُ لِدِينِه المُفَارِقُ للجَمَاعَةِ»[١].

فقوله: «التارك لدينه المفارق للجماعة» المرادُ به: المرتَدُّ.

وقالَ ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَٱقْتُلُوهُ»[٢].

١٠ ـ الردة:

فالردَّةُ هِي: الرُّجوعُ عن الإسْلاَمِ. وتكونُ إمَّا بالقَوْلِ، وإمَّا بالفِعْلِ، وإمَّا بالاعتِقَادِ، وإمّا بالتَّرْكِ.

أ ـ تكُونُ بالقَوْلِ: كَأَنْ يتكلَّمَ الإنْسَانُ بِكَلِمَةِ الكُفْرِ غيرَ مُكْرَهٍ، فَيرتدَّ بِذلِكَ عن الإسْلام؛ قال تعالى: ﴿... وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

فَإذَا نَطَقَ الإنْسَانُ بكلمةِ الكُفْرِ؛ فإنَّه يُحْكَمُ بكفرِه، إلاَّ أَنْ يكُونَ مُكْرَهاً؛ كما قَال تعالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود:
البخاري: كتاب الديات، باب (٦)، رقم(٦٨٧٨)، [١٢/ ٢٥٠].
ومسلم: كتاب القسامة، باب (٦)، رقم(١٦٧٦)، [٦/ ١٦٦]، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس: كتاب الجهاد والسير، باب (١٤٩)، رقم (٣٠١٧)، [٦/ ١٨٠].

إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [النحل: ١٠٦ ـ ١٠٩] فلم يعذرِ اللهُ في التَّلفُّظِ بكَلَمةِ الكُفْرِ إلا المُكْرَه.

أَمَّا غيرُ المُكْرَهِ فإِنَّه يكفرُ، سواءٌ كَانَ جَادّاً، أَي: قَاصِداً لمِعنَى الكَلِمةِ، أَو كانَ هَازِلاً لم يَقصِدْ مَعْناهَا وإِنَّما جَاءَ بها عن طريقِ المِزْاحِ واللَّعِبِ، فإِنَّه يكفرُ بها. وهَذا بِنصِّ القُرآنِ، وذَلِكَ لَمَّا تكلَّم أُناسٌ في غَزْوةِ تَبوكَ وقَالُوا: ما رأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائنا هَؤلاءِ: أَكْذَبَ أَلسُناً، وأَرْغَبَ بُطُوناً، وأَجْبَنَ عندَ اللِّقَاءِ، يَعْنُون رسولَ اللهِ ﷺ وأَصحابَه، فبلغتْ مقالتُهم رسولَ اللهِ ﷺ فجاءوا يَعتِذرون إليه مِمَّا قَالُوا في مَجلِسِهم، وجَعَلُوا يَقُولُون: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ ﴾، فيقولُ لهم رَسُولُ الله ﷺ: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ

إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ـ٦٦] (١).

فَإِذَا نَطَقَ بِكَلِمَةٍ يَستهزِىءُ فِيها بالدِّين، أَو يَسْتهزِىءُ باللهِ أَو برسُولِه، فإِنَّه يَكفرُ بذلِكَ ولو كانَ يَمزَحُ ويَلْعبُ؛ لأَنَّ هَؤلاءِ الذين نزلتْ فيهم الآيةُ كانوا مؤمنين وكَانُوا يَقُولُون تِلكَ الكَلِمة ويَزعُمونَ أَنَّها من بَابِ التَّسلِية، ويَقْطَعُون بها عَنْهم تَعَبَ السَّفَرِ لأَنَّهم كَانُوا مُسافِرينَ، ومَعَ ذلِكَ حَكم اللهُ بكُفرِهم ولم يَقْبَلِ اعتذارَهم. فهَذا كُفْرٌ بالقَوْلِ.

ب ـ وقَدْ يَكُونُ الكفرُ بالاعتِقاد: كأَنْ يَعتقِدَ شَرِيكاً لله عزَّ وجلَّ، أَو يَعتَقِدَ صِحَّةَ ما عَليه الكُفَّارُ ولو لم يَنطِقْ بِلسَانِهِ؛ لأَنَّ الله جَلَّ وعَلا حَكمَ بكُفْر المُنافِقينَ؛ لأَنَّهم يعتقِدونَ بقُلوبِهم الكُفْرَ مع أنهم ما نَطقُوا به؛ بل يَنْطِقُون بِخلافِهِ. فمَنِ ٱعتَقَد الكُفْرَ بِقَلْبِه ـ ولَو لم يَنطِقْ بِلسَانِه، ولَو لم يَعملْ به ـ فَإِنَّه يَكُونُ كَافِراً كُفْرَ المُنَافِقينَ الذين يُظْهِرُونَ الإِسْلاَمَ، ويَعْتقِدُونَ في قُلوبِهم خِلافَ مَا يَقُولُونَ بأَفْواهِهم.

وكَذلِكَ الشَّكُّ والظَّنُّ، فإِنْ شَكَّ في حَقَائِقِ الإِيْمَانِ كَفَرَ؛

---

(١) أخرج هذا الحديث ابن جرير في تفسير سورة التوبة، آية (٦٥)، رقم (١٦٩١٢).

لِقولِه تَعالَى: ﴿ . . . أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ [الكهف: ٣٧] إِشَارةً لِمَنْ قَالَ: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٦]، فَلمَّا شَكَّ فِي قِيامِ السَّاعَةِ كَفَرَ بذَلِك. والذي عِندَه شَكٌّ في أُمورِ الدِّين المعلومةِ منه بالضَّرورَة يَكونُ كَافِراً بنصٍّ هَذه الآيةِ الكَريمةِ.

جـ ـ وكَذَلِكَ يَكُونُ الكفرُ بالفِعْلِ، إِذا فَعَلَ أَفْعَالَ الشِّرْكِ وأَفعالَ الكُفْرِ حَكَمْنَا عليه بالكُفْرِ: فَإِذا ذَبَحَ لغيرِ اللهِ، أَو سَجَدَ لغيرِ اللهِ، أَو ٱستغَاثَ بغيرِ اللهِ، فإِنَّه يُحْكَمُ بكُفْرِهِ، ولو قَالَ: أَنَا ما أَعتَقِدُ هَذا بقَلْبِي، نَقُولُ: فِعْلُكَ هَذا كُفْرٌ، ونَحْكُمُ عليه بِالكُفْرِ بما ظهر منك.

د ـ وكَذَلِكَ التَّرْكُ: إِذا تَركَ شَيْئاً من أُمورِ الدِّينِ كالصَّلاةِ مَثَلاً، فَإِذا تركَ الصَّلاةَ مُتعمِّداً فَإِنَّه يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ؛ لِقولِهِ ﷺ: «**العَهْدُ الذي بيْنَنَا وبيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فقَدْ كفَرَ**»[1]، علَّقَ الكُفْرَ على تَرْكِ الصَّلاةِ مُتعمِّداً. فأَمَّا إِذا كَانَ غيرَ مُتعمِّدٍ فهَذا لا يَكْفُرُ، بل يُعَدُّ مُخْطِئاً.

وقال ﷺ: «**بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكُ**

---

(١) أخرجه الخمسة ـ إلا أبا داود ـ وقد تقدم تخريجه.

الصَّلاةِ»[١]، فعلَّق الكُفْرَ على مجرَّدِ التَّرْكِ ولو كانَ لم يَجحدْ وُجوبَها، فَأَمَّا إذا جَحَدَ وُجوبَها، فهَذا كافِرٌ ولو صلَّى في الصفِّ الأَولِ. ولو كانَ يَقُولُ: إنَّ الصَّلاةَ طَيِّبةٌ وعِبادةٌ، لكِنَّها ليسَتْ وَاجِبةً. فهَذا كَافِرٌ بالإِجْماعِ، ولو كَانَ يُحافِظُ عَلى الصَّلاة.

وكَذلِكَ مَنْ جَحَدَ وُجوبَ الزَّكَاةِ، أوُ وُجُوبَ الحَجِّ، أَو وُجوبَ الصِّيامِ، يَكُونُ كَافِراً ولو فَعَل هَذِهِ العِبادَاتِ. ولكنَّ الكَلامَ في الذي يَترُكُ الصَّلاةَ وهُو يَعتقِدُ وُجُوبَها، فَهَذا يَكْفرُ بنصِّ الحَديثِ.

هَذِه بعضُ أَنواعِ الرِّدَّةِ على سَبيلِ الإِجْمَالِ. وإِذا رَاجَعْتَ كِتَابَ أَحكامِ المرتَدِّ في كُتُبِ الفِقْهِ ترى العَجبَ العُجَابُ، حتَّى قَال بعضُهم: إنَّ الرِّدَّة تَزِيدُ على أَرْبعمئة نَاقِضٍ من نَواقِضِ الإِسْلامِ.

فالأَمْرُ خَطيرٌ جدًّا. ولا يَجُوزُ أَنْ يُتَهاوَنَ في هَذا الأَمْرِ؛ لأَنَّه في هَذِه الأَيَّامِ بالذَّاتِ، ظَهَرَ قولٌ غَرِيبٌ. يَقُول أَصحابُه: إنَّ الإِنْسَانَ لا يَكفر مَهْمَا فَعَل، ومَهْما قَال، إلاَّ إذا كَانَ في قَلْبه

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر، وتقدم تخريجه.

مُكذِّباً وجَاحِداً! يا سُبحانَ الله! يَغفَلُ عن نُصوصِ القُرآنِ ونُصوصِ السُّنَّةِ ويأتي بقَولٍ مُحدَثٍ! هَذا تَضْليلٌ للنَّاسِ، وهذا تَهْوينٌ من شَأنِ الكُفْرِ ومن شَأنِ الشِّرْكِ، والعِياذُ باللهِ. فَيَجِبُ أَنْ لا نَغتَرَّ بِهذا القَوْلِ، ولا بمَنْ قالَه، وإن كَانَ يَنتسِبُ إلى السُّنَّةِ وإلى السَّلَفِ، فَهَذا قَوْلٌ لا يَقْبَلُه صَاحِبُ سُنَّةٍ أَبداً؛ لأنَّه مُخالِفٌ للكِتَابِ والسُّنَّة. وهُو مَبنيٌّ على الجَهْلِ والقَولِ على اللهِ بلا عِلْمٍ. والجُحودُ والتَّكذِيبُ - كما تَقرَّر سَابقاً - نَوعانِ من أَنْواعِ الكُفْرِ، ولَيْسَ الكُفْرُ مَحصُوراً فِيهما.

فَالواجِبُ على المُسلِمُ: أَنْ يَكُونَ على بَصِيرةٍ من دِينِهِ، ويأْخُذ دينَه من كِتابِ اللهِ وسنَّةِ رسُولِه ﷺ، لا من أَقوالِ النَّاسِ الذين هُمْ عُرْضةٌ للخَطأِ والصَّوابِ. ونَحنُ نَعتقِد أَنَّ هَؤلاءِ وقَعُوا في هَذا لا عن قَصْدٍ، وإنّما وقَعُوا فيه عن جَهْلٍ. نسأَلُ اللهَ لَنا ولهم الهِدايةَ والبَصِيرةَ، والعِلْمَ النَّافِعَ، والرُّجوعَ إلى الحَقِّ؛ فإنَّ الرُّجُوعَ إلى الحقِّ فَضِيلةٌ، والحقُّ أحقُّ أَنْ يُتَّبَع. وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبِه وسلَّم.

الدَّرسُ السَّابعُ

الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ:

١ - تَمْهِيدٌ في بَيَانِ أَهمِّيَّتِهِ:

لاَ شَكَّ أَنَّ الأَمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ على جَانبٍ عَظيمٍ من الدِّينِ، حتَّى عدَّه بعضُ العُلماءِ من أَرْكَانِ الإِسْلامِ، وفي بَيَانِ جبريلَ عليه السَّلامُ لمَّا سأَلَ النَّبيَّ ﷺ عن الإِسْلامِ وذكرَ له أَركانَ الإِسْلامِ الخَمسةَ، قال: «... **وأَنْ تأْمُرَ بِالمَعْرُوفِ وتنهى عن المنكر**».

وَكَانَ الصَّحابةُ يُبايِعونَ النَّبيَّ ﷺ على الأَمْرِ بالمعرُوفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ:

وذَلِك أَنَّ النَّاسَ، وإِنْ كَانُوا مُسْلِمينَ ومُؤْمِنين، لكنْ تَقَعُ منهم مُخَالَفَاتٌ، فالإِنْسَانُ ضَعِيفٌ تَجرُّه الشَّهوةُ والفِتَنُ إِلى الشَّرِّ، ويَحتاجُ إِلى مَنْ يأمرُه بالمَعرُوفِ ويَنْهاهُ عن المُنْكَرِ؛ لأَنَّ دَاعِيَ الشَّهواتِ والشَّبهاتِ دَاعٍ كَبيرٌ. والله جلَّ وعَلاَ يَمتحِنُ

إيمانِه نَقْصٌ، أَو المُنافِقُ الذي لَيْس عندَه إيمانٌ أَصْلاً. فاللهُ يَمتحِنهُم ويَبتلِيْهم بِما يَعرِضُ لهم من الشَّهواتِ والشُّبهاتِ ودَواعِي الشُّرورِ، فكَان لابُدَّ من قِيامٍ بالأَمرِ بِالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ؛ لأَجلِ إصْلاحِ ذَلِكَ الخَلَلَ.

فَقَد شَبَّه النبيُّ ﷺ «القَائِمَ على حُدودِ اللهِ»، أَي: الملتزم بحكم الله القَائِمِ بالأَمرِ بالمعرُوفِ والنهيِ عن المُنْكَرِ «والوَاقعِ فِيها»، أَي: العَاصِي والمُخالِفُ. شَبَّههمْ بقومٍ استَهمُوا على سَفِينةٍ في البَحْرِ، بعضُهم أَصابَ أَعْلاها، أي الطَّابِقَ العُلويَّ، وبَعضُهم أَصابَ أَسفَلَها، فكانَ الذين في الدَّورِ الأَسْفَلِ يَحتَاجُونَ إلى أَنْ يَصْعَدُوا إلى الدَّورِ الأَعْلى لِيَسْتَقُوا الماءَ ويَأْخُذوه للشُّربِ والاستِعمالِ، فَقَال بعضُهم لبَعضٍ، أَي: الذين في الدَّورِ الأَسْفَلِ: لو خَرَقْنَا في قِسْمِنَا خَرقاً نأْخُذُ مِنْه الماءَ ولا نُؤْذِي مَن فَوْقَنا، فَلَو تَرَكَهم أَهلُ الدَّورِ العُلويِّ يَخرُقُونَ السَّفِينَةَ، لَغرِقَ الجَمِيعُ؛ إِذْ يدخلُ الماءُ السَّفِينةَ ويَغْرَقُ الجَمِيعُ، وإِنْ أَخذُوا عَلى أَيْدِيهم ومَنَعُوهُمْ من خَرْقِ السَّفِينَةِ نَجا الجَمِيعُ[1].

---

(١) في حديث النعمان بن بشير، أخرجه البخاري: كتاب الشركة، باب (٦)، رقم (٢٤٩٣)، [٥/١٦٣].

فَكَذلِكَ في حُدودِ اللهِ. والسَّفِينَةُ هُنا: هِيَ الشَّرِيعةُ؛ لأنَّه لا نَجاةَ للبَشَرِ إلاَّ بِهذِ الشَّرِيعَةِ. والذي يَخْرِقُها: هُو الذي يَعْصِي ويُخالِفُ، وهم أَهْلُ الدَّورِ الأَسْفَلِ، والذين يَمْنَعُونَهم ويَأْخُذون على أَيْدِيهم هم أَهْلُ العِلْمِ والعَقْلِ والإيمانِ في الدَّور الأَعلى، ولو تَركُوا الأَمْرَ بالمَعْرُوفِ والنَّهيَ عن المُنْكَرِ لخُرِقَتِ الشَّرِيعَةُ وغَرِقُوا جَمِيعاً.

هذا مثلٌ مُطابِقٌ للآمِرين بالمَعْروفِ والنَّاهِين عن المُنْكَرِ، وأَنَّه إذا قَامَ أَهلُ العِلْمِ وأَهْلُ العُقولِ السَّلِيمةِ يَأْخُذون على أَيدِي السُّفَهاءِ، نَجوا جَمِيعاً من الهَلاكِ والعذَابِ. وأَمَّا إذا تَركُوهُم وشَأْنَهم وتَساهَلُوا في أَمْرِهم، فَإِنَّهم يَخْرِقُون الشَّرِيعةَ بِالمعَاصِي ويَغْرِقُ الجَمِيعُ.

فهَذا من الأَمثِلةِ النَّبوِيَّةِ العَظِيمةِ التي ضَربَها رسولُ اللهِ ﷺ للآمِرينَ بالمَعْروفِ والنَّاهِينَ عن المُنْكَرِ، والمُخَالِفينَ.

٢ ـ الأَدَلَّةُ من القُرآنِ على وُجوبِ الأَمرِ بالمعْروفِ والنَّهي عن المُنْكَرِ:

في القُرآنِ الكَرِيمِ آياتٌ كثِيرَةٌ تحثُّ على هَذا الأَمْرِ قَال

تَعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فهذا أَمرٌ من اللهِ سُبحانه وتَعالَى؛ لأَنَّ اللاَّمَ في: ﴿ وَلْتَكُن ﴾ للأَمْرِ ﴿ أُمَّةٌ ﴾، أَي: جَماعَةٌ، يَأْمُرونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ. فإذا قَامَ بالأَمْرِ بالمعروف والنَّهيِ عن المُنْكَرِ جَماعةٌ من أَهْلِ العِلْمِ والبَصِيرَةِ، فإِنَّهم قَامُوا بفَرْضِ الكِفَايَةِ، وإذا تَرَكَهُ الجَمِيع أَثِمُوا جَميعاً وهَلَكُوا.

وقولُه: ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾، أَي: يَدْعُون إِلى الإِسْلاَمِ وشريعتِه وإِلى الإيمانِ.

قولُه: ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾: الأَمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عن المُنْكَرِ هُو من الدَّعوةِ إِلى اللهِ، ولكنَّ اللهَ جَلَّ وعَلا أَفردَه بالذِّكْرِ تأكيداً لشأنه، وإلاَّ فهُو دَاخِلٌ في الدَّعْوةِ إِلى اللهِ سُبحانَه وتَعالَى.

والمرادُ بالمَعْرُوفِ: كلُّ ما أَمرَ اللهُ تَعالَى به من الطَّاعَاتِ؛ سُمِّي مَعْرُوفاً لأَنَّ العُقُولَ السَّلِيمةَ تَعْرِفُه ولا تُنْكِرُه.

والمُنْكَرُ: كلُّ مانَهى اللهُ عنه؛ سُمِّيَ مُنْكَراً لأَنَّ العُقُولَ

السَّلِيمةَ تُنْكِرُه.

وأَعْظَمُ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ: الأمرُ بالتَّوحِيد، وبَعدَه سائِرُ الأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ وأَعْظَمُ المُنكَرِ الشِّرْكُ باللهِ عزَّ وجلَّ، ثم بَقِيَّةُ المُخَالَفَاتِ من الذُّنُوبِ والمَعَاصِي. فالمَعْرُوفُ إذاً يَشْمَلُ كلَّ الطَّاعَاتِ، والمُنْكَرُ يَشْمَلُ كلَّ المَعَاصِي.

ثم قَال جلَّ وعَلا: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الذين يَدْعُون إلى اللهِ وَيأمُرون بالمعْروفِ ويَنْهَونَ عن المُنْكَرِ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٤﴾: حَصَر الفَلاحَ فِيهم، فَدَلَّ على أَنَّ الذِينَ لا يَأمُرونَ بالمَعْروفِ، ولا يَنهونَ عن المُنْكَرِ لا يُفلِحُون.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]: هَذا خِطابٌ لِهذِه الأُمَّةِ، ﴿كُنتُمْ﴾ أي: أُمَّةَ الإِسْلَامِ، ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ لأَنَّهم أَنْفَعُ النَّاسِ للنَّاسِ، يَدْعُونَهم إلى اللهِ ويأمُرونَهم بالمعْرُوفِ ويَنْهونَهم عن المُنْكَرِ، ويُخْرِجُونَهم من الظُّلُمَات إلى النُّورِ، ويُبَصِّرونَهم، ويُعَلِّمونَهم، فهَذه أُمَّةٌ هِي خَيرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ؛ لما تَقُومُ بِه من نَفْعِ العَالَمِ لإِخْراجِهم من الظُّلمَاتِ إلى

النُّورِ، فَخيْرُهُم لَيْسَ قَاصِراً عَليهم؛ بل هُو مُتَعدٍّ إلى غَيرِهم، فَلِذلكَ نَالُوا هَذِه الخَيْرِيَّةِ.

وقولُه: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: هَذامن صِفَاتِ هَذِه الأُمَّةِ التي هِي خيرُ أُمةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: أَي: بكُلِّ طَاعةٍ وَخَيْرٍ، ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: أَي: عن كُلِّ مَعْصِيةٍ وشَرٍّ.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فالأَمْرُ بِالمعْروفِ والنَّهيُ عن المُنْكَرِ من خِصَالِ الإِيْمانِ ولذا قال بعده: ﴿وتؤمنون بالله﴾ ذكر الخاص قبل العام، فالذِي يُرِيْدُ أَنْ يَكُونَ من خيرِ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ يَقُومُ بِهَذا العَمَلِ: يَأْمُرُ بِالمَعْروفِ ويَنْهى عن المُنْكَرِ.

ولو تخلَّتْ هَذِه الأُمَّة عنِ الأَمْر بِالمَعْروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، ذَهَبتْ خَيْرِيَّتُها؛ لأَنَّها إِنَّما نَالتْ هَذِه المرْتَبةَ وهَذِه الخَيرِيَّةَ بِهَذِه الخَصْلةِ العَظِيمَةِ: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، فَهُم يُصْلِحُون عَقَائِدَ النَّاسِ، ويُصْلِحُون أَعمالَهم ومُعَامَلاتِهم وآدابَهم، ويُقِيمُونَهم على دِين اللهِ عزَّ وجلَّ، وأَيُّ نفعٍ للعَالَم أَعظمُ من هَذا النَّفْعِ؟

أَمَّا الذِي يُخرِجُ للنَّاسِ الآلاَتِ المدمِّرةَ والأَسلِحَة الفَتَّاكَةَ، فَهَذا لا يُريدُ الخَيْرَ لِلنَّاسِ، إنَّما يُرِيدُ الهَلاكَ. وإرادةُ الخَيرِ للنَّاسِ هِي في الآمِرينَ بالمعْرُوفِ النَّاهِين عن المُنْكَرِ.

وَقَال سُبحانَه مَادِحاً بَعْضَ أَهلِ الكِتَابِ، ومُسْتَثْنِياً لهم من قومِهم الذين اشْتَهَرُوا بِمُخالفَتِهم لرُسُلِهم وكُتُبِهم، قَالَ تَعالى: ﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ـ١١٤] أي؛ قَائِمةٌ على أَمرِ اللهِ سُبحانَه وتَعالى.

فوَصَفَهم بِصِفَةِ صَلاحِهم في أَنْفُسِهم؛ يَتْلُون كِتَابَ اللهِ آناءَ اللَّيْل ويُؤْمِنُون باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، هَذَا صَلاحُ أَنفُسِهم. ثم ذكر من صفاتهم: إصلاحهم لغيرهم، فقال تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فهم يُصْلِحُون غيرَهم، فالمُؤْمِنُ يُرِيدُ الخيرَ للنَّاسِ كَما يُرِيْدُه لنَفْسِه؛ قال ﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١)، والذِيْ يأمُرُ بالمعْروفِ

---

(١) متفق عليه من حديث أنس:
البخاري: كتاب الإيمان، باب (٧)، رقم (١٣)، [١/٧٩]، واللفظ له. ومسلم: =

وينْهى عنِ المُنْكَرِ يُرِيْدُ للنَّاسِ الخَيْرَ، والذِي لا يَأْمُر بِالمعْروفِ ولا يَنْهى عن المُنْكَرِ يُرِيدُ للنَّاسِ الشَّرَّ.

ويَتصَوَّرُ بعضُ النَّاسِ أَنَّ الذي يَأْمرُ بالمَعْروفِ ويَنْهى عن المُنْكَرِ يَتدخَّلُ في أُمورِ النَّاسِ، وأَنَّه مُتعجِّلٌ!! وهَذا من ٱنْتِكاسِ المَفاهِيم.

والحقُّ أَنَّ الذي يَأْمُرُ بِالمَعْروفِ وينهى عن المنكر إنما يُرِيدُ للنَّاس الخيرَ، يُرِيدُ لهم الإِصْلاح. والذِي يَسْكُتُ ويَقُولُ: أَنا لا أَتدَخَّلُ فِي شؤون الآخرينَ!! هَذا هُو الذِي يُرِيدُ للنَّاسِ الشَّرَّ، ولا يُحِبُّ لهم الخَيْرَ.

وقال سُبحانَه في سُورةِ المائِدةِ لمَّا ذكر مَا وقَعَ من أَهْلِ الكِتابِ من قَولِهم الإِثْمَ وأَكلِهمُ السُّحْتَ، قَال سُبحانَه: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣] قوله: ﴿لولا﴾ أي: هلاَّ، وهَذا لَوْمٌ من اللهِ جَلَّ وعَلا لعُلماءِ أَهلِ الكِتَابِ الذين سَكَتُوا وتَركُوا قَومَهم يَقُولُونَ الإِثْمَ، يتكلَّمُون بكلِّ كَلامٍ قَبِيحٍ، ولا يَنْهَونَهم، ويَأْكُلونَ

= كتاب الإيمان، باب (١٧)، رقم (٤٥)، [١/ ٢٠٦].

السُّحْتَ، وهُو: الحَرامُ من الرِّشْوَةِ والرِّبَا وغَيرِ ذَلِكَ، ولا يَنْهونَهم، فَسُكوتُ عُلمائهم وعُبَّادِهم هُو الذي سَبَّبَ لهم التَّمادِي في هِذِه المحرَّماتِ، لأنَّهم لم يَجِدُوا من يَردعُهم ويَأْخُذُ بِأَيْدِيهم.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: لبِئسَ مَا كَان يَصْنَعُ هَؤلاءِ الرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبارُ، وهُو السُّكُوتُ عن المنكر. ذَمَّهم اللهُ سُبحانَه وتعَالَى على هَذا الصَّنِيعِ وهُو تَرْكُ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهي عن المُنْكَرِ، وتَرْكُ النَّاسِ يُفْسِدُون في الأَرْضِ، ولا يُبيِّنُون لَهم ولا يُنْكِرونَ عَلَيْهِم، فَإِنَّ سُكوتَ العُلماءِ يُجرِّئُ الفَسَقَةَ والسُّفَهاءَ، ويَحْمِلُهم على التَّمادِي، فلذلِكَ اسْتحقُّوا لَعْنَةَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ كما قال تعالى في هذه السُّورةِ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩]، لَعنَهم اللهُ سُبحانَه وتَعالَى، واللَّعْنُ هُو الطَّرْدُ والإِبْعَادُ عن رَحْمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ. لَعَنَهم عَلى لِسَانِ دَاودَ وعِيسى ابنِ مَرْيَمَ، وهذَانِ نَبِيَّانِ من أَنْبياءِ بَنِي إِسْرائيلَ، أَنزلَ اللهُ لَعنَتهم على لسانِ هَذِين

النَّبيين الكَرِيمَيْنِ، والسَّببُ هو ما ذَكره بِقَولِه: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: أَنهم كَانَوا يَرى بَعْضُهم بَعْضاً عَلى المَعَاصِي ولا يُنكِرُ عليه، فَلَّما حَصَلَ مِنهُم ذَلِك لَعَنَهم اللهُ وطردَهُم من رَحْمتِه سُبحانَه وتَعالَى. وقد جَاءَ في الحَدِيثِ عن النبيِّ ﷺ: «أَنَّ أَحدَهَم يَلقَى الرَّجُلَ على المَعْصِيَةِ في طَرِيقِهِ فَيَنْهاهُ عن ذَلِكَ، فيقولُ: يَا فُلانُ، اتقِّ اللهَ، إِنَّ ذَلِك لا يَحِلُّ لَكَ، ثم يَراهُ في اليوم الثاني فينهاه، ثم يراه في اليَوم الثَّالِثِ فلا يُكلِّمهُ بشيءٍ، ولا يَمْنَعُه ذلِكَ مِن أَنْ يَكُونَ أَكِيلَه وجَلِيسه، فَلَّما رأَى اللهُ ذَلِكَ مِنْهم، ضَرَبَ قُلوبَ بَعضِهم بِبَعْضٍ ولَعَنَهم على أَلسِنَةِ أَنْبِيَائِهم»(١).

وقَال ﷺ لِهَذِه الأُمَّةِ: «كَلاَّ، واللهِ لَتأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عن المُنكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيه، ولَتَأْطُرُنَّهُ عَلى الحَقِّ أَطْرًا، ولَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحقِّ قَصْراً، أَو لَيَضْرِبَنَّ اللهُ قُلوبَ

(١) كما في حديث ابن مسعود، أخرجه أبو داود. كتاب الملاحم، باب (١٧)، رقم (٤٣٣٦)، [٤/ ٣٢٩].
والترمذي: كتاب التفسير، باب (٥)، رقم(٣٠٥٦)، [٥/ ٢٥٢].
وأخرجه ابن ماجه مرسلاً عن أبي عبيدة: كتاب الفتن، باب (٢٠)، رقم (٤٠٠٦)، [٤/ ٣٦٠].

بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ يَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»(١).

وما ذَكرَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلا عن أَهْلِ الكِتَابِ من الذَّنْبِ والوَعِيدِ، نحنُ المُخَاطَبُونَ به من أَجْلِ أَنْ نَتَجَنَّبَ فِعْلَهم وَطَرِيقَهُم، فَالله جَلَّ وَعَلاَ ما ذَكَرَ لَنَا في الكِتَابِ من الذَّمِّ والوَعِيْدِ إلاَّ مِن أَجْلِ أَنْ نَتَجَنَّبَ طَرِيقَهم، ونحذَرَ ممَّا سبَّبَ لَهم ذَلِكَ من المُخالَفَاتِ.

وقَال في سُورةِ الأَعْرَافِ لمَّا ذَكر وصْفَ النَّبيِّ ﷺ في التَّوراةِ: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ﴾ - يعني محمداً ﷺ - ﴿ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧] هَذا من صِفَاتِ هَذَا الرَّسُولِ ﷺ أَنَّه جَاءَ إِلى العَالَمِينَ يَأْمُرُهم بالمعرُوفِ ويَنْهَاهُم عن المُنْكَرِ، ومنهم أَهلُ الكِتَابِ.

ثم ذَكرَ في هَذهِ السُّورةِ أَيضاً قِصَّةَ أَصْحابِ القَرْيَةِ: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ [الأعراف:

(١) أخرجه أبو داود من حديث ابن مسعود السابق برقم (٤٣٣٦، ٤٣٣٧).

١٦٣] أَيْ : عَلى سَاحِلِ البَحْرِ، ومَعْلومٌ أَنَّ البَحرَ فيه الصَّيْدُ، صَيْدُ الأَسْمَاكِ التي يأكُلُ مِنْها النَّاسُ لَحماً طَرِيًّا. كَانَتْ هَذِه القَرْيةُ على سَاحِلِ البَحْرِ فأَرادَ اللهُ جلَّ وَعلا أَنْ يَمْتَحِنَهم بسبب ذنوبهم، فَحرَّمَ عليهم صَيْدَ السَّمَكِ (الحِيتَانِ) يَوْمَ السَّبْتِ، فَمَاذَا فَعَلُوا؟ عَمِلوا حِيْلَةً على أَمْرِ اللهِ سُبحانَه وتَعالَى، وذَلك أَنَّهم حَفروا حُفَراً وجَعَلُوا عَلَيْها الشِّباكَ، فَإِذا جَاءَ سَمَكٌ في يَوْمِ السَّبْتِ وَقَع في هَذِه الحُفَرِ، وأَمْسَكَتْه الشِّبَاكُ، فَإِذَا جَاءَ يومُ الأَحَدِ انتَهى النَّهْي، فَجَاؤوا وأَخَذُوها!! وَزَعَمُوا بِذَلِكَ أَنَّهم ٱجْتَنبُوا المَنْهيَّ عنه يَومَ السَّبْتِ وما صَادُوا فِيه، وإِنَّما وَقَعتْ في الحُفَرِ وصَادَتْهُ الشِّبَاكُ.

ومَنِ الذِي حَفَرَ الحُفَرَ؟! ومَن الذِي نَصَبَ الشِّبَاكَ؟! هَل اللهُ يُخادَعُ سُبحانَه وتَعالَى؟! هَذِه حِيلَةٌ على أَمْرِ اللهِ سُبحانَه وتَعالَى. قَال تعالَى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ . . . ﴾ هَذَا من الابتِلاءِ. في يَوْمِ النَّهي تَأتِي الحِيتَانُ والأَسْمَاكُ كَثِيرةً جِدّاً مما يُغْرِيهم بالصَّيْدِ، فَإِذَا جَاءَ يومُ الأَحدِ اختَفَتِ الحِيْتَانُ، وهَذا ٱبتِلاءٌ لهم،

لكنَّهم لم يَجْتَنِبوا المَنهيَّ عنه، ولِهَذا قَال: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أَي: نَمْتَحِنُهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

ثم قال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣ـ١٦٤].

فهم انقَسَمُوا قِسْمَين عندَ هَذِه الفِعْلَةِ الشَّنِيعَة:

أ ـ قِسْمٌ سَكَتُوا، ورَأَوا أَنَّه لا فَائِدةَ من الأَمْرِ بِالمَعْروفِ والنَّهي عن المُنْكَرِ، فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

ب ـ وقِسْمٌ أنكروا هذا الشيءَ وحَذَّروهم. فقال الذين سكتوا للذين أنكروا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال الذين يَأمُرونَ بالمعْرُوفِ ويَنْهونَ عن المُنْكَرِ: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: لأنَّا قُمْنَا بما أَمَرْتَنا به. ولم نَسْكُتْ، ولعلَّ اللهَ يُلقِي في قُلوبِهِمُ القَبُولَ للمَوعِظَةِ. فَلا ييْأَسُ الدَّاعيةُ من أَنَّ العَاصِيَ يَقبلُ النَّصِيحةَ ويَنْتَفِعُ بِها.

وأَنْتَ إِذَا أَمَرتْ بِالمَعْرُوفِ ونَهيتَ عن المُنكَرِ، أَنْتَ بَيْنَ

أَمرَيْنِ طَيِّبين: إِمَّا أَنْ تَنفعَ نَصِيْحَتُكَ، ويُنقِذَ اللهُ بِكَ هَذا العَاصِيَ. وإِمَّا أَنْ تبرأَ ذِمَّتُكَ.

ولاَ تكُنْ من السَّاكِتين، لأَنَّ السُّكُوتَ على المَعَاصِي لا يَجُوزُ.

فَلمَّا لم يَقبَلُوا النَّصِيْحَةَ وعَتَوا عَمَّا نُهوا عَنْه، أَخبرَ اللهُ عنهم أَنَّهم ﴿نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: ذَكَّرَهُم به أَهلُ النَّصِيحةِ من الأَمرِ بالمعْرُوفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ و﴿نَسُواْ﴾: يَعْني: تَرَكُوا، والنِّسْيَانُ يُطْلَقُ ويُرادُ به التَّرْكُ، وليسَ المَعْنَى أَنَّهم ذَهَلُوا عَنْه وذَهَبَ من ذَاكِرتِهم، لَكنَّهم تركُوه عَمْداً، فالنسيان يطلق على الترك كما قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ أي: تركهم في العذاب، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾: أَيْ: تَركُوا. قَال اللهُ تَعالَى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾: وهُم الذِين أَمرُوا بِالمعْروف ونَهوا عن المُنْكَرِ.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ حين وَقَعوا في المُنْكَرِ. أخذهم الله ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ١٦٥﴾ حيث تَمرَّدُوا عَمَّا نُهُوا عَنْه من المَعْصِيَةِ ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥ ـ ١٦٦] حوَّلَ اللهُ صُورَهم من صُورِ

آدمِيِّينَ إلى صُورِ قِرَدَةٍ، عَذاباً لهم، والعِياذُ باللهِ، مَسَخَهم اللهُ هَذا المَسْخَ.

وَأَمَّا الذِين نَهوا عن المُنْكَرِ فَأَنجاهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ.

وأَمَّا الذين سَكَتُوا، فاللهُ لم يَذْكُرْهُم بِشَيءٍ، لا بِنَجاةٍ ولا بِهلاَكٍ، بَلْ أَخبرَ أَنَّه أَنْجى الذِين يَنْهون، وأَنَّه أَهلَكَ الذِين عَتَوا عن أَمرِ اللهِ سُبحانَه وتَعالَى. وأَما المُؤمِنُونَ الذِين سَكَتُوا فإِنَّ اللهَ سَكَتَ عَنْهم، لم يَذْكُرْ في حَقِّهم لاَ هَلاكاً ولاَ نَجاةً، والظَّاهِرُ ـ واللهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّهُم هَلَكُوا مَعَ الهَالِكينَ؛ لأَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا مُنْكَراً وَلم يُنْكِرُوه أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقابٍ مِن عِنْدِه، فَإِذا جَاءَ العِقَابُ عَمَّ الصَّالِحَ والطَّالِحَ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] فيَأْخُذُ العَاصِيَ بِمَعصِيتِه، ويَأْخُذُ السَّاكِتَ بِسُكوتِه وعَدمِ إِنْكارِه.

وقَال سُبحانَه وتَعالى لِنبيِّه مُحمَّد ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] أَمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أَنْ يَأْمُرَ بالمَعْروفِ، فالأَمْرُ بِالمَعْروفِ هُو من سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، كَما أَنَّه

من صِفَتِهِ في التَّوراة: أنَّه يَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ ويَنْهى عن المُنْكَرِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وكَذَلِكَ المُؤمنونَ المُقْتَدُونَ به يَقُومُون بِهَذا العَمَلِ العَظِيمِ، يَأْمرونَ بِالمعْرُوفِ ويَنْهَونَ عن المُنْكَرِ. وقَدْ بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّهم في آخِرِ الزَّمانِ يَكونُونَ غُرباءَ؛ فقال ﷺ: «**بَدَأَ الإسْلاَمُ غَرِيباً وسَيَعُودُ غَرِيْباً كَما بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»(١). قِيْلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسولَ اللهِ؟ قَال: «**الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»(٢)، وفي رِوايةٍ: «**الذين يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**»(٣)، فَهَؤلاءِ الغُرباءُ يَأْمُرونَ بِالمعْروفِ ويَنْهَونَ عن المُنْكَرِ، وخُصُوصاً إِذَا كَثُرَ الفَسَادُ، فَإِنَّهم يَقُومُونَ بِالوَاجِبِ، ويَصْبِرُونَ على مَا يَنالُهم من الأَذَى والاسْتِغْراب.

فَالذِي يَأمُرُ بالمَعْروفِ ويَنْهى عن المُنْكَرِ الآنَ، تَجِدُ النَّاسَ يُسَفِّهونَه ويَلْمِزُونَه، ويَقُولُوا: ما عَنده عَقْلٌ، يَتَدَخَّلُ في

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب (٦٥)، رقم (١٤٥)، [١/ ٣٥٤]. ونحوه عن ابن عمر (٣٧١).

(٢) أخرج هذه الزيادة من سياق آخر عبدالله بن أحمد من حديث عبدالرحمن بن سنة: برقم (١٦٨١٠)، [٥/ ٧٠٧] في زوائد المسند.

(٣) أخرج هذه الزيادة الترمذي: كتاب الإيمان، باب (١٣)، رقم (٢٦٣٥)، [٥/ ١٨] من سياق آخر.

أُمُورِ النَّاسِ، وليقولوا ما يَقُولون؛ فإِنَّ هَذا لَنْ يُؤثِّر عَلَيه؛ لأَنَّه لابُدَّ أَنْ يَعلمَ أَنَّ طَريقَ الدَّعوةِ والأَمرِ بالمعْرُوفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ، لابُدَّ فيه من عَقَبَاتٍ، والذِي نِيَّتُه للهِ لا يُبالِي بِهَذا الكَلامِ، ولا يَتَراجَعُ عن القِيامِ بِهَذه الفَضِيلَةِ. أَمَّا الذِي تكُونُ نِيَّتُه الرِّياءَ، أَو حُظُوظَ الدُّنيا، فَهَذا سُرْعَانَ ما يَتَراجَعُ إِذَا سَمِعَ مِثْلَ ذَلك.

وقَالَ تَعالَى فِي وصْفِ المُؤمنِينَ فِي سُورةِ التَّوبَةِ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

ذَكَرَ أَوَّلَ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ أَنَّهم يَأْمُرونَ بِالمَعْروفِ ويَنْهَونَ عن المُنْكَرِ، وأَنَّ هَذين الأَمرينِ يَقُومُ بهما الرِّجَالُ والنِّسَاءُ، ولَيْسَ هُو خَاصٌّ بالرِّجَالِ. ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ يعني: يُحِبُّ بعضُهم بَعْضاً، ويَنْصُرُه. مأخوذٌ مِن الوَلاَيةِ، وهي: الحُبُّ والنُّصْرةُ والمُؤَازرَةُ، فـ«المُؤْمِنُ للمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضاً»(١). وأَمَّا التَّفَكُّكُ فَهَذا مِن صِفَاتِ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨١) ومسلم (رقم ٢٥٨٥).

المُنَافِقِينَ، أَمَّا المُؤْمِنُونَ فَبَعْضُهم أَوْلِياءُ بَعْضٍ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، وبُنْيَانٌ وَاحِدٌ، يَتناصَحُونَ، يَتآمَرُونَ بالمَعْروفِ وَيتنَاهَونَ عن المُنْكَرِ، ويُصْلِحُ بعضُهم فَسادَ بعضٍ؛ حَتَّى يَسْلَمَ البِنَاءُ والجَسَدُ من الدَّخِيلِ.

وَهَذَا الأَمْرُ عامٌّ للرِّجَالِ والنِّسَاءِ: الرِّجَالُ يَأمُرون بالمَعْروفِ ويَنْهونَ عن المُنْكَرِ، والنِّساءُ يَأْمُرْنَ بِالمعْروفِ ويَنْهَيْنَ عن المُنْكَرِ، كُلٌّ بِحسَبِ ٱستِطَاعَتِهِ، فالمرأَةُ مع أَخواتِها وجَارَاتِها، ومَنْ تَجتَمِعُ بِهنَّ، وفي بَيتِها، ولاَ يَسَعُها السُّكُوتُ، فَهِيَ مُؤمِنَةٌ، لابُدَّ أَنْ تَأْمرَ بِالمَعْروفِ وتَنْهى عن المُنْكَرِ بِحَسَبِ ٱستِطاعَتِها.

وجَزاءُ هَؤلاءِ مَا أَخبرَ به اللهُ جَلَّ وعَلاَ بِقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التوبة: ٧١].

بِخِلافِ حَالِ المُنافِقِينَ فَإِنَّ اللهَ ذَكَرَهُم في الآيةِ التي قَبْلَ هَذِه بِقَوْلِه: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٧]، فمِنْ صِفَاتِهم: أَنَّهم يَأْمُرونَ بالمُنْكَرِ: أي

بالمُنْكَراتِ والمَعَاصِي والفَسَادِ، واتِّبَاعِ الشَّهَواتِ، يَأْمُرونَ بِالإِبَاحِيَّةِ، ويَأْمُرونَ بِكَشْفِ العَوْرَاتِ. ويَنْهَوْنَ عن السَّتْرِ، يَنْهوْنَ عن الحِجَابِ، يَنْهونَ عن الصَّلاةِ وحُضُورِ المَسَاجِدِ، يَنْهَونَ عن الطَّاعَاتِ، يُثَبِّطُونَ عن الخَيْرِ. هَذِهِ صِفَاتُ المُنَافِقِينَ: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، فهم يأمُرونَ بِجَمِيعِ المَعَاصِي والفَسَادِ، ويَدْعُونَ إليهِ ويُرَغِّبُونَ فيه. ويَنْهونَ عن المَعْرُوفِ، وعنِ الطَّاعَاتِ ويُقَلِّلُونَ من أَهَمِّيَّتِها مَهْما ٱستَطَاعُوا. هَذه مُهِمَّةُ المُنَافِقينَ.

وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: بمعنى أَنَّهم بُخَلاءُ لا يُخْرِجُونَ الزَّكَاةَ، لا يَتَصَدَّقُونَ عَلى المُحْتَاجِينَ، لا يُنْفِقُونَ في وُجوهِ الخَيْرِ، فمِنْ صِفَاتِهم قَبْضُ الأَيْدي عن الإِنْفَاقِ.

وكَذلِك أَنَّهم ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فَلَمْ يَقُومُوا بِطَاعَتِه سُبحانَه وتَعالَى وبِعَمَلِ ما أَمرَهُم به، نَسُوا العملَ الصَّالِحَ الذِي يُقرِّبُهم إلى اللهِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: يَعْني: تَرَكَهم وأَهمَلَهم، ولَمْ يَعْبأْ بهم عُقوبَةً لهم، لمَّا أَعْرَضُوا عنِ اللهِ أَعرَضَ اللهُ عَنْهم؛ لأَنَّ الجَزَاءَ من جِنْسِ العَمَلِ.

وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾: أَي: الخَارِجُونَ عن طَاعَةِ اللهِ وعَنْ دِينِه وشَرْعِهِ. سَجَّلَ اللهُ عَليْهِمْ هَذِه الصِّفَاتِ القَبِيحَةَ.

فَتبيَّن من هَذا أَنَّ من صِفَاتِ المُنَافِقينَ: أَنَّهم يَأْمُرون بالمُنْكَرِ، ويُحَسِّنُونَ المَعاصِي للنَّاسِ، ويَدْعُونَهم إِليْها، ويُزَيِّنُونها لَهم، ويَقُولُونَ: هِيَ الرُّقِيُّ والحَضَارَةُ والتَّقَدُّمُ! فَأَمَّا العِبادَاتُ والطَّاعَاتُ فَهَذِه مُعَوِّقَاتٌ عَنِ التَّقَدُّمِ وعَنِ الرُّقِيِّ وعَنِ الحَضَارَةِ!! هَذَا بِزَعْمِهِمْ، وهَذا كَلامُهم الآنَ.

والأَمْرُ بِالمعْرُوفِ والنَّهيُ عن المُنْكَرِ من صِفَاتِ أَهْلِ البَيْعَةِ مع اللهِ سُبحانَه وتَعالَى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [التوبة: ١١١].

قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ﴾: المُشْتَرِي في هَذِهِ البَيْعَةِ هو اللهُ سُبحانَه وتَعالَى، والبَائِعُ هو المُؤمِنُ، والسِّلْعَةُ هي الأَنْفُسُ والأَموالُ،

والثَّمنُ هو الجَنَّةُ، والجَنَّةُ أَعظمُ المَطَالِبِ، والسَّاعِي في هَذِه البَيعةِ هُو رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ ﴿فَيَقۡتُلُونَ﴾: الكُفَّارَ، ﴿وَيُقۡتَلُونَۖ﴾: يُسْتَشْهَدُونَ في سَبِيلِ اللهِ. وقوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾: سُجلتْ هَذِه البَيْعَةُ في الكُتُبِ الثَّلاثَةِ، وهَذِه أَعْظَمُ الكُتُبِ، وهَذِهِ وثِيْقَةُ البَيْع. وقولُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾: الجواب: لا أَحدَ أَوفَى بعهدِه من اللهِ سُبحانَه وتَعالَى، فَلا يَخافُونَ نَقْضَ البَيْعِ أَو نَقْص الثَّمَنِ، فاللهُ جَلَّ وَعَلا هُوَ أَوفَى مَن يَتَعَاقَدُ مَعَه سُبحانَه وتَعالَى؛ ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾.

ثم قال في صفاتهم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢] فَذكَرَ من صِفَاتِهم ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: وهَذا يَدُلُّ على عِظَمِ مَنْزِلَةِ الأَمرِ بالمعْروفِ والنَّهي عن المُنْكرِ.

واللهُ سُبحانَه وتَعالى عدَّه مع هَذِه الأَوصَاف العَظِيمَةِ، فَكيفَ يَأْتِي من يُهوِّنُ من شأْنِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ بعدَ ذَلِكَ! ويَقُولُ: هَذا تَدَخُلٌ في أَحوالِ النَّاسِ تتبُّع للعَثَراتِ، وتَتَبُّعٌ لعَوْراتِ النَّاسِ!! فَيُشَوِّهُونَ الأمرَ بِالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ بهذِه الأُمورِ.

وذَكر سُبحانَه وتَعالى في آخرِ سُورةِ هُودٍ الأُمَمَ ومَا حلَّ بِهم من الهَلاكِ، وقَصَّ قَصَصَهم، ثم قَال: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦] فلولا كان في هَذِه الأُممِ التي أَهْلَكَها اللهُ مَن يَأْمُرُ بالمعْروفِ ويَنْهى عن المُنْكَرِ حتَّى لا يُصِيبَهمُ ما حَلَّ بهم من هَذا الدَّمارِ. فالسَّببُ الذي أُهلِكُوا به هُوَ أنَّه لَيْسَ فِيهم مَنْ يَأْمُرُ بالمَعْروفِ ويَنْهى عن المُنْكَرِ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ فدلَّ على أَنَّ الذِي يَنْجُو هُوَ الذِي يَأْمُرُ بالمعروفِ ويَنْهى عن المُنْكَرِ أَما غيرهم فقد قَال عنهم: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾، نَسألُ اللهَ العَافيةَ. ولِذَلِكَ حَلَّتْ بِهمُ العُقُوبَاتُ التي ذَكرهَا اللهُ تَعالَى في سُورةِ هُودٍ، والتي تُشيبُ النَّواصِي، وتَفلُّذَ الأَكْبادَ، لو أَنَّ هُناكَ مَنْ يُصْغِي لِكَلامِ اللهِ

سُبحانَه وتَعالَى.

وقَالَ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ قوله: ﴿بظلم﴾: يَعْني: بالمَعَاصِي والمُخَالَفاتِ، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: لو كَان فِيها مَن يُصلِحُ، ويَأْمرُ بِالمعروفِ ويَنْهَى عنِ المنكَرِ، لَدَفَعَ اللهُ عَنْهم العَذَابَ، أَيْ: لا يُهْلِكُها إلاَّ بِٱنْتِشَارِ المَعَاصِي وعَدمِ الأَمْرِ بِالمعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ، فدلَّ على أَنَّ وُجودَ الأَمرِ بِالمعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ في الأُمَّةِ، ضَمَانٌ مِن وقُوعِ العَذَابِ، وأَنَّ تَرْكَ الأَمْرِ بِالمعْرُوفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ مُؤْذِنٌ بِوُقُوعِ العِقَابِ العَاجِلِ.

مَا أَهلَكَ اللهُ أُمةً من الأُممِ إلاَّ بِسببِ أَنَّه لَيْسَ فِيهم رَشِيدٌ يَأْمرُهم بِالمَعْرُوفِ ويَنْهَاهُم عن المُنْكَرِ.

وقال تَعالى في سُورةِ الحَجِّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠-٤١] فمنِ اتَّصفُوا بِهذِه الصِّفَاتِ مكَّنَهم اللهُ

في الأَرْضِ وأَقامَ لهمْ دَولتَهم.

وهَذه الصِّفاتُ هي: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: انظر كَيْفَ قَرَنَ الأَمرَ بِالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنْكَرِ مع الصَّلاةِ والزَّكاةِ، فكيفَ يأْتي مَن يُهَوِّنُ مِن هَذا الجَانِبِ! واللهُ قَرنَه بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ، واللهُ أَقْسَمَ ووعد على هَذِهِ الصِّفَاتِ، بالنَّصْرِ والتَّمكِينِ في الأَرْضِ لمنِ اتَّصَفُوا بِهَا، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وهَذا وعدٌ من اللهِ جلَّ وعَلاَ، ومعنى: ﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾، أَي: يُطِيعُه ويفْعَلُ ماأمرَه بهِ ويَتْرُكُ مانَهى عَنْه، ويَنْصُرُ دِينَه، ويُعْلِي كَلِمتِه في الأَرْضِ. ومَعْنَى نُصْرَةِ اللهِ لَه: أَنَّه يُؤَيِّدُه ويُعْلِيه ويُمكِّنُ لَه، ويَنْصُرُه على عَدُوِّهِ. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾: أي: كلُّها بيدِ اللهِ سُبحانَه وتَعالَى، فهو يُعامِلُ النَّاسَ بحسَبِ أَعمالِهم، فمن عَامَلَ اللهَ مُعاملةً حَسَنةً، فَأَقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ، وأَمرَ بِالمعْروفِ ونَهى عن المُنْكَرِ، نَصَره اللهُ، ومكَّنَه في الأَرْضِ. ومَنْ ضَيَّع هَذهِ الأُمورَ، ضَيَّعَه اللهُ سُبحانَه وتَعالَى.

وقال في سُورةِ النُّورِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]: وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُوا بهذه الوُعودِ العَظِيمةِ: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ يَجْعلُ الخِلافَةَ لهم على النَّاسِ، ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾: بشرطِ: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾: فمَن وَفَّى للهِ سُبحانَه وتَعالى، وفَّى الله لَه ﴿... وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقد عَرَفْنا أَنَّ من عِبادةِ اللهِ: إقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكَاةِ، والأَمرَ بالمعروفِ، والنَّهيَ عن المُنْكرِ، هَذا من عِبادَةِ اللهِ سُبحانَه وتَعالَى.

ـ والأَمرُ بالمعْرُوفِ والنَّهيُ عن المُنكَرِ، قَرِينُ الصَّلاةِ والزَّكَاةِ في كِتَابِ اللهِ عزَّ وجلّ، فمَن قامَ به مع الصَّلاةِ والزَّكاةِ فإِنَّ اللهَ يَمنَحُه هَذِه الوُعودَ العَظِيمَةَ.

وفِي وَصَايا لُقْمانَ لابنِه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] يأتي الأمرُ بالمعْروفِ والنَّهيُ عن المُنْكرِ مَعَ إِقامَةِ الصَّلاةِ في عِدّةِ مواضع.

في أَكثرِ الآياتِ التي مرَّتْ يأْتي بعدَ الأَمْرِ بالمعْروفِ بالنَّهيِ عن المُنْكَرِ مع الصلاة والزكاة، ولم يَكْتفِ بالأَمْرِ بالمَعْروفِ؛ بل لابُدَّ من النَّهي عن المُنْكَرِ، فَلا يَكْفِي أَنّك تَقُولُ للنَّاسِ: صَلُّوا، وحُجُّوا، واْعتَمِروا؛ بل لابُدَّ أَنْ تَقُولَ لهم: اترُكُوا ما نَهاكُمُ اللهُ عَنْه من الذُّنُوبِ والمَعَاصِي، والسَّيِّئاتِ والمُخالَفاتِ العَامَّةِ والخَاصَّةِ، تَنْهاهُم عن الزِّنا، وعن السَّرِقَةِ، وعن شُرْبِ الخَمْرِ، وعن تَرْكِ الصَّلاةِ، وكلِّ المُخَالَفاتِ. فلم يَكْتَفِ اللهُ بالأَمْرِ بالمَعْروفِ؛ بل قَرَن مَعَه النَّهيَ عن المُنْكَرِ؛ لأَنَّه لا يَصْلُح هَذَا إلاَّ بِهَذا، فَدلَّ على أَنَّهما أَمْرانِ مُتَلازِمانِ، لا يَنْفَكُّ أَحدُهُما عن الآخَرِ، لأَنَّ من النَّاسِ مَنْ يَعْملُ أَعْمالاً كَثيرةً مِنَ الخَيْرِ، لكنَّه يَخْلِطُها بالشَّرِّ والمَعَاصِي، وربَّما تَحْبطُ أَعمالُه بِسَبَبه ذَلِكَ، رُبَّما رَجحتْ سَيِّئَاتهُ عَلَى حَسَنَاتِه، فَيَهلَكُ يَومَ القِيامَةِ. فَلا يَكْفِي أَنَّكَ تأْمُرُ بالمَعْرُوفِ، وتَحُثُّ النَّاسَ على الخَيْرِ، بل لابُدَّ بِجَانِبِ ذَلِكَ أَنَّك تَنْهى النَّاسَ عنِ المُنْكَرِ وعَنِ الشَّرِّ.

وقد يُفردُ أَحدُهما مُراعاةً لمقتضى الحالِ، فيدخُلُ فيه الآخَرُ، كقوله تَعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال:

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]؛ وذلك لأَنَّ الأَمرَ والنهي متلازِمانِ، فالأَمر بالشيء يَستلِزم النَّهي عن ضِدِّه، والنهيُ عن الحرام أمرٌ بأخذ الحلال.

وسُورَةُ العَصْرِ يَقولُ اللهُ سُبحانَه وتَعالى فيها: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ أي: كُلَّ إِنْسَانٍ، ماٱسْتَثْنى أَحداً، لا الملوك ولا الصعاليك، ولا الأَحْرارَ ولاَ العَبيدَ، ولا الذُّكورَ ولا الإِنَاثَ، ولا العَرَبَ ولا العَجَمَ، كُلُّ النَّاسِ خَاسِرُونَ إلاَّ من ٱتَّصفَ بأَربعِ صِفَاتٍ فإِنّه يَنْجو من هَذِه الخَسَارَةِ:

الصِّفَةُ الأُولَى: الإِيمانُ باللهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: آمَنُوا باللهِ سُبحانَه وتَعالى إِيماناً صَحِيحاً جَازِماً، ويَدْخُلُ فيه تَوْحيدُ الأُلُوهِيَّةِ، وتَوْحيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وتَوْحيدُ الأَسْماءِ والصِّفَاتِ. الإِيمانُ باللهِ وَبأَسْمائِهِ وصِفَاتِه، وبِعبادَتِهِ حقَّ العِبادةِ، ولابُدَّ مع ذَلك من العِلْمِ؛ لأَنَّ الإِيْمَانَ يَقُوم على العِلْمِ، ولا يَصْلُح إلاَّ بالعِلْمِ والتعلُّمِ. وتعلُّم العِلْمِ يَدْخلُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لأَنَّ الإِيمانَ لا يَقُومُ إلاَّ على العِلْمِ، والمرادُ بالعِلْمِ هنا: العلمُ باللهِ سُبحانَه وتَعالى وشرعِه.

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أَي: الطَّاعاتِ الوَاجِبَةَ والمُستحبَّةِ.

الصَّفَةُ الثَّالِثَةُ: التَّواصِي بالحَقِّ، هَذا هُو مَحلُّ الشَّاهِدِ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾: والمرادُ به هنا الأَمرُ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنْكر.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾: لمَّا كَانَ الذي يأْمُرُ بالمَعْرُوفِ ويَنْهى عن المُنْكَرِ، يَتَعرَّضُ لأَذَى النَّاسِ ولِمُضايَقَتِهم، ويَلَقى من النَّاسِ اللَّوْمَ والتَّوبيخَ، أَو التَّهدِيدَ، أَو غيرَ ذلك من المُعوِّقَاتِ، كَان لابُدَّ لَهَ من صَبْرٍ عَلى ما يَلْقَى، كَما قَال لُقْمانُ لابِنِهِ: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

هذه أمثلةٌ من الآيَاتِ القُرآنِيَّةِ التي تتَناوَلُ الأَمْرَ بِالمعْروفِ والنَّهيَ عنِ المُنْكَرِ.

٣ـ مَراتِبُ الأَمْر بالمعروف والنَّهي عن المُنكرِ:

جَاءتِ السُّنَّةُ المُطهَّرةُ فبيَّنَتْ مَراتِبَ الأَمْرِ بالمعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَر؛ لأَنَّها تُبيِّنُ القُرآنَ، وتُوضِّحُه، فَقَالَ ﷺ:

«مَنْ رأى مِنكُم» : وهَذا كَلامٌ عامٌ لِجَميعِ المُؤمنينَ، «منكراً» أيَّ مُنْكَرٍ، لم يخصَّه بمنكرٍ معيَّن؛ بل قال: «منكراً»، وهَذا نكِرَةٌ فيَعُمُّ كُلَّ مُنكرٍ، «فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ»، أَي: يُزيلُهُ بيَدِهِ، «فإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيْمَانِ»(١).

فجَعَلَ النَّاسَ إِزاءَ المُنْكَرِ ثَلاثَةَ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ له سُلْطَةٌ ومَقْدِرَةٌ، فيُزِيلُ المُنْكَرَ بيدِه، وهو السُّلْطَانُ أَو نَائِبُهُ، أَو رِجالُ الحِسْبَةِ الذين وَكَّلَ إِلَيْهم وَلِيُّ الأَمْرِ هَذَا الشَّأْنَ، وكَذَلِكَ صَاحِبَ البَيْتِ لَه يَدٌ عَلى أَهلِ بَيتِه، لاَ أَحدَ يَعتَرِضُ عَليه، حتَّى السُّلْطَانُ لا يَعْتَرِضُ على صَاحِبِ البيتِ في بَيْتِهِ. فَصَاحِبُ البَيْتِ لَهُ سُلَطَةٌ ويَدٌ، ولهَذَا قَال ﷺ: «مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاةِ وهُمْ أَبناءُ سبع، وٱضْرِبُوهُمْ عَلَيْها وهم أَبناءُ عشْرٍ، وفرِّقُوا بيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ»(٢)، وقولُ الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد، وقد تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده:
أحمد: برقم (٦٧٥٣)، [٢/٢٤٨].
وأبو داود: كتاب الصلاة، باب (٢٦) رقم (٤٩٥، [١/٢٣٩].
وأخرجه الترمذي بنحوه من حديث الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده: كتاب الصلاة، باب (١٨٢)، رقم (٤٠٧)، [٢/٢٥٩].

أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿. . . قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وَوَلِيُّ الأَمْرِ لَهْ سُلْطَةٌ، فَيغيِّرُ المنكرَ بيدِه، ولا أَحدَ يَعترِضُ عَليه؛ لِسُلْطَتِهِ.

المَرتَبَةُ الثَّانِيَةُ: إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ لَيْسَ عندَه سُلْطَةٌ؛ بَلْ هُوَ مِن سَائِرِ النَّاسِ، فهَذا يُنْكِرُ المنكرَ بِلِسَانِه، بمعْنَى أَنَّه يَنْصَحُ ويَعِظُ ويُذكْرُ، ويُبَيِّنُ للنَّاسِ أَنَّ هَذَا لا يَجُوزُ على سَبِيلِ العُمُومِ، ويُبَيِّنَ للوَاقعِ في الخَطأِ سِرًّا فِيما بَيْنَهُ وبَينَه، كأَنْ يَقُولَ: لا يَنْبَغِي مِنْكَ هَذا يا فُلانُ، وأَنتَ رجلٌ طَيِّبٌ، من أُسْرةٍ طَيِّبَةٍ، ولا يَلِيقُ بِكَ هَذَا. ولا يُنادِيه أَمامَ النَّاسِ، لكنْ فِيما بينه وبينَه.

ومِنَ الإِنْكَارِ باللِّسَانِ: تَبْلِيغُ ولاةِ الأُمورِ عن المُنْكَراتِ، وكَذَلِكَ الإِنْكارُ بالقَلَمِ، بأَنْ يَكتُبَ الإِنْسَانُ في الصُّحفِ والمَجلَّاتِ، يُحذِّرُ النَّاسَ منَ المَعَاصِي والمُنْكَراتِ، فَهذَا من الإِنْكَارِ باللِّسانِ.

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتكَلَّم، بأَن يكونَ ليسَ عندَه عِلْمٌ، ولا يَعرِفُ الحَلالَ والحَرامَ، أَو عندَه عِلْمٌ لكن مَنَعه

من الكَلام مَانِعٌ، فهَذا يُنْكِرُ المُنْكَرَ بِقَلْبه، ويُبْغِضُه، ويَبْتَعِدُ عن أَهْلِهِ، ولا يُجَالِسْهُم، ويُؤَاكِلْهم، ويُشَارِبهم، ويَضحك معهم، كما فَعَلَه بَنُو إسرائيلَ.

قَالَ ﷺ عن هذه المرتبة: «**وذَلِك أَضْعَفُ الإِيمان**» أي؛ الإِنْكارُ بالقَلْبِ أَضْعَفُ الإِيمانِ. وفِي رواية: «**ولَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَل**»[1]، فَمَنْ لم يُنْكِرِ المُنْكَرَ، ولا بِقَلْبه، هَذا لَيْسَ عنده إِيمانٌ؛ لأَنَّه لو كَانَ عِندَه إِيْمانٌ ولو كان ضَعيفاً؛ لأَنْكَرَ المُنكَر بقلْبه عَلَى الأَقلِّ، وإِذَا أَنكر المُنْكَرَ بِقَلْبِه ابتعدَ عن أَهْلِه، وعَن مُجالَسَتِهم؛ لئلا يُصِيبُه ما أَصَابَهُم.

والله تَعالَى أَعْلَمُ. وصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا محمَّدٍ وَعَلَى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ.

(١) تقدم تخريجه.

الفهرس